

ثلاث حيوات لرجل واحد

بومدين بلکبير

ثلاث حيوات لرجل واحد

منشورات الشهاب

© منشورات الشهاب 2025

www.chihab.com

الهاتف : 023 15 67 07 / الفاكس : 023 13 75 55

ردمك : 0-751-39-9947-978

الإيداع القانوني : أفريل 2025

إلى أبي..

رأيت بعينيك السماء مملأى بالنجوم.
وعرفت بقلبك أن هذه الأرض تنبض.

I

كما لو أنني لم أكن..

« لن نحتاج كثيرا إلى الكلام

سنكتفي بالحياة وسنكون قد تعلمنا كيف نحيها.»

آنا غريكي (1931-1966).

1

نهضت مذعورا، حلقي جاف، وشفتاي متبيستان، وفرائصي ترتعد. وأصابع يديّ ترتجف. جسدي مبلل بالكامل بفعل العرق الذي لم يتوقف عن السيلان من كل مسامات جسمي التي أشعر بها تتسع وتتسع حتى تستحيل إلى فجوات هائلة. أحس بنبضات قلبي المتصاعدة كأنها تريد أن تخترق صدري الذي لم يعد يقوى على التحمل أكثر، وأنفاسي متقطعة ومختنقة كأن رثتيّ معتلتان أو كأن هناك من يجثم فوق صدري بكتلته العظيمة.

استيقظ كل من في البيت فزعين على وقع صرختي المدوية التي أطلقتها من أعماقي المتشظية. هرعت سكينه إلى فراشي.

- إن شاء الله خير. ما بك عبد القادر، ما بك؟

كان صوتها الضعيف فزعا، وبالكاد يصلني. فقد ضعف سمعي منذ ثلاث سنوات فقط، وباتت أذني اليسرى كخرقة بالية مثقوبة. قصدت عشرات الأطباء، لم أجن من وصفاتهم الطبية سوى رمي أموالني في الرياح، وإنهاك سمعي أكثر. لا طائل منهم كأنهم طلبت في مرحلة تدريب. ولا فائدة من أكياس الأدوية التي تعج بها أدراج غرفة نومي، لم أعد أثق في هؤلاء الأطباء إطلاقا، ولن أسلمهم نفسي للعبث بها مرة أخرى، لست فأر تجارب.

اقتربت مني أكثر، شعرت بذلك لما لفحتني أنفاسها الدافئة. حاولت أن ألتفت بوجهي صوبها، سرت ارتعاشة في نصفي العلوي،

وبعسر تمكنت أخيرا من الالتفات والنظر صوبها. لمحتها جامدة في مكانها كالجليد من فرط الفزع. لم أنبس ببنت شفة، فقط عينايا غائرتان وشففتايا عاجزتان عن التحرك.

- عبد القادر، هل أنت بخير؟ من الأفضل أن يأخذك إدريس إلى المستوصف.

مرة أخرى عجزت عن الكلام، أشرت لها بتحريك رأسي ذات اليمين وذات الشمال. فهمت عدم تحمسي لمقترحها، لذلك لم ترغب في معاندتي خوفا من إزعاجي ورفع توتري. فهي أدرى بطبعي ومزاجي المتقلب. اكتفت فقط بالغممة:

- على راحتك. كل ما في الأمر أنني فكرت فقط في مصلحتك، وخفت أن تتدهور صحتك.

ثم شدت على معصمي بيدها اليسرى، وبسطت كفها الأيمن على جبھتي الملتمة بحبات العرق البارد، وراحت تحرك شففتيها وتتمتم بالأدعية وبتلاوة المعوذتين، تؤدي طقوسها تلك بخشوع وتضرع مغمضة عينيها كأنها ملاك رحيم. أحاول أن أتلوى، لا أقوى، رجلاي تخذلانني، كأنهما مشلولتان. أرغب في البكاء حتى أتحرر بعض الشيء، صوتي يتلاشى ويذوب في العدم كأنني أبكم، ودموعي تأبى عن الانهمار كأن مآقي جفت.

انتفضت سكينه بجسدها الهزيل واقفة، ثم خرجت حافية القدمين مهولة باتجاه المطبخ. بعد هنيهات عادت كأنها تسابق الزمن، مضت تلك الهنيهات بالنسبة لي كدهر. جلبت كيس الملح، وراحت تذروه في زوايا الغرفة وتحت السرير، كأنها تطارد روحا شريرة وتحاول بحرص زائد أن تُضَيِّقَ عليها الخناق في كامل أرجاء غرفتي الباردة.

لما فرغت جلست مجددا بالقرب مني، وأخذت عودا خشبيا يابسا، ولفته بغطاء رأسها، ثم راحت تحرك العود وقطعة القماش تلك

في حركة دائرية منتظمة من الأعلى للأسفل، ومن الأسفل للأعلى، وهكذا استمرت تكرر العملية بشكل مفرط، وتتمتم بكلمات غير مفهومة. وكلما كانت تنظر إلى نتيجة حركتها تلك، كان يمتقع وجهها أكثر، ويتقطب حاجباها، وتعتربها حالة من الدهول.

كنت أغفو وأصحو بانقطاع، في شبه هذيان. الكوابيس ذاتها تعاودني، ترفض أن تتركني في حالي بسلام. منذ سنوات لم أنم أكثر من ثلاث ساعات، أنام قبل منتصف الليل بقليل وأنهض قبل صباح الديك. يا لهذه الكوابيس اللعينة! لا تكتفي بقض مضجعي فقط، بل أصبحت تدخلني في حالات صراع مريرة مع نفسي، لا أفأ أن أخرج منها إلا خائر القوى، ضائعا، غير متصالح مع ذاتي، أجري خلف سراب الغفران، ولا أطاله. أحيانا تتملكني رغبة جامحة في فقدان الذاكرة، كي أنعم براحة النسيان. عندها ينتابني شعور بالضعف واليأس، وأفكر في مدى هشاشة الإنسان، مهما كان أرعن، أو متسلطا، أو مستبدا، أو صاحب مال وترف، أو ذا جاه ومكانة!

وهكذا مع انتصاف النهار بدأت أتخفف وأتحرر تدريجيا، وأحس أن جسدي يلفظ الأذى رويدا رويدا. وبدأت أستعيد حواسي وأشعر بأعضائي. في أول الأمر شممت رائحة الملوخية تفوح في أرجاء البيت، ثم سمعت صوت الخلاط المنبعث من المطبخ.

- كم أضيف من حبة موز للحليب يا يُمًا؟ صاح ابني سعيد موجهها كلامه إلى سكينه.

- حبتين فقط.. يكفي، يكفي. ردت سكينه بمرح.

بعد لحظات يسيرة لمحت طيف سكينه يجتاز باب الغرفة. اتجهت صوب النافذة، رفعت عنها الستائر المسدلة، ثم فتحتها قليلا. أنارت أشعة الشمس المتسربة من الخارج الغرفة، شعرت بدفئها يسري في جسدي ممزوجا بنسمات الهواء التي تسللت من الجزء المفتوح من النافذة.

فركت عيني بدافع قوة النور المتدفق، لأن الظلمة كانت قبل ذلك تكتسح المكان، وتثاءبت في حركة تلقائية. لما رفعت يديّ إلى الأعلى بعض الشيء، كي أتمطط، شعرت بجسدي متهالكا كمن خاض حربا ضروسا ونجا منها بأعجوبة.

حدقت في ظهر سكينه المنحني قليلا إلى الأمام. بدت لي اليوم أكثر من أي وقت مضى كهيكل قاب قوسين أو أدنى من التداعي. التفتت بوجهها نحوي، وبلهجة أقرب للنصح كثيرا وأبعد عن التأنيب قليلا، قالت مخاطبة إياي:

- أعتقد أنك الآن أفضل بكثير، أنصحك أن لا تغفل عن الاهتمام بصحتك. ليس هناك جدوى من تحدي المرض، لن تجني أي شيء من ركوب رأسك. مع التقدم في السن تصبح أجسادنا أوهن، وتختلق أي مبرر للمرض، ما يجعلنا أكثر شكوى من أي طارئ ولو كان بسيطا. لم آبه كعادتي بكلامها.

على الرغم من أنها كانت تخافني وتهابني بسبب رعونتي، ومزاجي المتقلب، وسورة غضبي الهستيرية غير المتوقعة، وصدع رأسها بالتأنيب المستمر واللوم المتكرر؛ أعتزف أنني صعب الإرضاء، ومن الاستحالة بمكان على أي شخص أن يعاشرنني، أو أن يتأقلم مع طباعي المنفرة، ويصبر على تصرفاتي غير اللبقة، كما فعلت هي! فقد كانت معي في منتهى اللطف، روحها سخية، ولم تثبط سلوكاتي تلك معنوياتها، أو تضعف استعدادها لخدمتي وللسهر على راحتي. ولم أحس في يوم من الأيام بتذمرها، أو أرى تبرمها في وجهي. كانت كلها عطاء، ولطفا، وودا. وكنت على الجانب النقيض منها؛ يجب أن تظهر للمرأة العين الحمراء، كي تبقى تحت جناحك دوما، ولا تسول لها نفسها ذات يوم الطيران خارج سربك، أو التفكير حتى في عصيانك. متى كان الرجل قويا وصلبا في مواقفه وحاسما في قراراته كسب ودّ المرأة وتقديرها، ومتى كان مهزوما ومستكينها لها ومتريدا زاد احتقارها ونفورها منه. فهي بحاجة إلى قوة الرجل وأن تكون تحت

ظله أكثر من حاجتها إلى عطفه وحنانه. فأن تتنازل للأنثى وتعاملها بود وتخفّض لها جناح الرحمة يعني أنك أتحت لها ركوب ظهرك عن طيب خاطر، ومنحتها من دون أن تدرك عصا السيطرة عليك، وقيادتك وفق مشيئتها الناقصة ومنطقها الأعوج. هكذا كنت أفكر دوماً، وهكذا أنا في تعاملي مع النساء.

أعيش ثلاثة عوالم مختلفة، كما أنني أتقمص شخصيات متعددة، لكل شخصية سماتها وصفاتها الملتصقة بها كالجلد واللحم. وجه واحد وثلاثة أقنعة، هكذا صنعت لكل عالم شخصيته التي تنطبق عليه كالقالب والأصل.

فقد عملت طوال عمري على أن أمتلك ثلاث حيوات متباينة، واجتهدت أن أفصل بينها بجدار عال وسميك وعازل من الصمت والكتمان، لا يمكن خرقه أو القفز عليه. فلكل حياة ناسها وأسرارها، وتفصيلها البرانية الطفيفة التي أظهرها كالزبد لمن أرغب من عامة الناس أو من يقعون في الدائرة المقربة، على حسب القدر الذي أريد، كما لها خصوصياتها الجوانية التي تسكن في أعماق أعماقي المظلمة، لا يسمع همسها أحد غيري.

بذلت قصارى جهدي واستنفدت كامل طاقاتي الظاهرة والباطنة على أن لا تتقاطع تلك العوالم، والشخصيات، والحيوات مع بعضها البعض، على ما فيها من تناقض وتباين صارخين.

غلّقت معظم أبواب المفاجآت التي تتسرب منها الصدف أو المفارقات غير المتوقعة، لا مجال أمامي في هذا الشأن لارتكاب الأخطاء، وإن كانت صغيرة، فكل خطأ قاتل بالنسبة لي مهما كان حجمه، فما بالك أن تحل حياة محل أخرى!

عالمي الأول مع عامة الناس، الجيران والأصدقاء ومن ألتقي بهم يومياً في الشارع أو في المقهى الذي اقصدته بانتظام، وعالمي الثاني مع عائلتي في تطوان التي انقطع حبل التواصل معها منذ سنين

طويلة، وأسرتي الصغيرة هنا في عنابة، وعالمي الثالث مع ذاتي وبئر أسراري الخاصة التي لن يدلف إلى عمقها أي دلو، فكل من حاول الغوص في أعماقي عاد خائبا، لأن كل الدلاء ظلت تسحب فارغة.

فكلما اتسع العالم، ضاق فهم الناس إياي، وتعذر عليهم إدراك حقيقتي، لذلك لا أهتم كثيرا بأحكام الناس المستعجلة، والتي تأتي دوما عن جهل ونقص دراية.

المفارقة أنني عشت تلك الحيوانات الثلاث بما فيها من فضائل وما عليها من رذائل. كما خبرت ثلاث تجارب زواج؛ زواجي من جميلة ابنة عمي مصطفى الذي لم يدم طويلا، وزواجي من بختة رحمها الله، وأخيرا زواجي من سكينه. من الصعب الحكم على مدى نجاحها أو فشلها، كل تجربة زواج خبرتها بمثابة عالم مختلف عن الآخر، لا خيط تشابه يربط بين تلك التجارب إطلاقا.

كما عشت في ثلاثة أمكنة مختلفة، مكان الميلاد والنشأة مدينتي تطوان التي أدين لها بالكثير والتي لم تغادر صورتها وذكراياتها مخيلتي وروحي أبدا، على الرغم من ظلمها ونكرانها لي في أشد لحظات عمري هشاشة واحتياجا. ومدينة تلمسان، وكذلك منطقة مغنية التي احتضنتني بعد أن ضاقت بي الدنيا ولفظني كل العالم. ثم مدينة عنابة الحلاية التي فتحت عيني على أشياء كثيرة. فقد عرفت حياتي ثلاث مراحل حاسمة تراوحت بين الشدة والرخاء، مرحلة المغرب، ومرحلة الالتحاق والمشاركة في الثورة التحريرية الجزائرية، ومرحلة ما بعد الاستقلال.

كما نجوت ثلاث مرات من موت محقق أثناء الثورة التحريرية؛ في المرة الأولى رصاصة فجرت رأس الشهيد الطاهر الملتصق بجنبي الأيسر، والرصاصه الأخرى فجرت الصخرة التي كانت تخفي الجزء الأيمن من جبهتي.

أما في المرة التالية خرجت صدفة من صف سير الجنود، لأنني انشغلت بمطاردة أرنب بري لفت انتباهي لونه الأبيض الناصع

المخلوط بالبني الخشبي وأغرّتني سمّنته، فأنفجر لغم أرضي على الرجل اليمنى للأخ المجاهد محمد الصغير بارة بدلا مني، إذ كان خلفي مباشرة في خط السير، وتقدم بعد أن تركت الصف، وهو إلى غاية اليوم يعيش برجل خشبية وضعت له في مشفى تونسّي آنذاك. وفي المرة الأخيرة كادت أن تعثر علي فرقة الكولونيل شاربونيبي أو فرقة الجحيم كما كنا نسميها آنذاك أنا ورفاق الكفاح بعد أن أعدمت نصف مجموعتنا، إذ كانت تصنّفني من بين أخطر المبحوثين عنهم ضمن قوائمها بعد أن فررت من مركز التعذيب، وتعرض أموالا مغرية لكل من يشي بنا. ونجوت حينها من الموت بأعجوبة، إذ سارع فلاح، كان عائدا صدفة بأغنّامه، إلى مساعدتي على الاختباء خلف كوخه الحجري، بمطمور القمح على عمق أمتار تحت الأرض، فكان من الممكن أن أكون ميتاً منذ عقود طويلة لو لا تدخل القدر لصالحني ثلاث مرات.

وقبل كل ذلك، تحالفت ثلاثة ظروف دفعتني لمغادرة المغرب والالتحاق بالثورة التحريرية في الجزائر؛ الظرف الأول ساهم فيه عمي جلول الصبايحي، وهو خيال جزائري التحق بالمغرب ضمن كتائب الصبايحية المشكلة من لفيّف من أبناء المستعمرات الفرنسية. لكنه فر من المعسكر الفرنسي، وحرق برنوسه الأبيض وشاشه الأزرق وسرواله الأحمر وباع جواده في مكناس، وأحتفظ فقط ببندقيته الحربية كتذكّار ولمآرب أخرى، ثم أستقر وتزوج في تطوان.

كنا نلتقي في حي الخرازين حيث اكثرى محلا هناك وانخرط في بيع المنتجات المصنّعة من الجلود. أخبرني أنه اضطر للانضمام لكتائب الصبايحية على وقع المجاعة التي حلت بالمنطقة التي كان يقطن فيها، وأن هناك من أبناء منطقتهم من جندوا في تلك الكتائب بالإجبار رغما عنهم، وقد حلفوه على المصحف الشريف على أن يكون وفيا للدولة والجيش الفرنسيين، ويحترم مبادئهما، وأن لا يخونهما، وبأنه مستعد لأن يضحّي في سبيل ذلك بكل غال ونفيس.

أخبرني عمي جلول عن تظاهره بالقتال أثناء المعارك التي خاضها مع الجيش الفرنسي في دول عدة، حيث كان يتم وضعهم في مقدمة الجيش. كما كان يدعي المرض في أحيان كثيرة، كذريعة للهروب من ساحة الوغى، فيضطر لجرح ساقه بآلة حادة، محدثا جرحا عميقا، ثم يذري عليه براز الحيوانات، فيلتهب الجرح ويتعفن أكثر، وتظهر عليه التقيحات، ويفرز روائح كريهة مما يفزع الأطباء، وبالتالي يضمن له الإقامة المريحة لفترات لا بأس بها، قد تطول لأشهر بأكملها في أجنحة المشافي الحربية.

فقد حدثني كثيرا عن الجزائر كبلد جميل وغني بالموارد والخيرات، وعن شعبها المقاوم والباسل، وعن المجازر الفظيعة التي كان يقترفها قادة وجنود الجيش الفرنسي بدون رحمة. كل ذلك نَمَى في داخلي وعيا عظيما والتزاما قويا بالمسؤولية تجاه محنة هذا البلد الجار.

أما الطرف الثاني فنشأ مما كان يصلني من أخبار شحيحة عن اجتماعات جرت في تطوان بالذات والناظور وغيرها من مدن الريف المغربي، بين المقاوم المغربي عبد الكريم الخطابي والمقاومين الجزائريين المعروفين، البطل العربي بن مهيدي والقائد محمد بوضياف. العربي بن مهيدي صاحب مقولة «ارموا الثورة للشارع يحتضنها الشعب»، حيث أعدمه الاستعمار الفرنسي فيما بعد بطريقة تراجيدية، ومحمد بوضياف الذي قُتل وهو رئيس للدولة المستقلة، برصاص ضابط أمن كلف بحراسته في تسعينيات القرن الماضي، أثناء إلقاءه خطابا في قصر الثقافة بمدينة عنابة، في مشهد مفزع صورته كاميرا التلفزيون العمومي على المباشر، وشاهده الملايين. وتلك الأنباء المفرحة التي سمعتها عن تأسيس جيش تحرير المغرب العربي، وقبول الإخوة الجزائريين بإسناد قيادته إلى عبد الكريم الخطابي لأصوله الجزائرية.

في حين ارتبط الطرف الثالث بعوامل شخصية وذاتية، بعيدا عن الموضوعية التي اقتضاها الطرفان السابقان. فقد استحوطت حياتي مع

زوجتي وابنة عمي جميلة إلى جحيم، بت لا أطيقها، ولا أرغب حتى في رؤيتها. فقد هجرتها في الفراش، وأصبحت أخرج من البيت ولا أعود إلا بعد أن يسدل الليل ستائره. فلا أكلمها ولا أجتمع معها على مائدة الأكل، ولا أنام معها على سرير واحد.

لست أدري هل نفوري منها كان مأتاه حقدى على عمي مصطفى، الذي تفرد بتركة جدي عبد الكبير الركراكي رحمه الله، بصفته الأخ الأكبر بين إخوته وأخواته، وأن ذلك يمنح له الحق في فعل ما يشاء. وما حيرني أكثر هو صمت والدي القاتل ورضوخه التام لرغبة أخيه، من دون أن يتبرم أو أن ينبس بكلمة، بله أن يقاوم رغبة عمي ويتخذ أدنى خطوة في صده عن مبتغاه، على اعتبار أن احترام الأخ الأصغر لأخيه الأكبر منه سنا يقتضيها العرف والشرع! بالعرف الأعرج والشرع المبتور استحوذ عمي على الميراث وحده.

أم أن مبعث نفوري منها هو حنيني إلى علاقتي السابقة بليلى حمودان الإدريسي أخت صديقي الأمين. فقد جمعتني بها قبل أن تزوجني أُمِّي بجميلة علاقة حب استثنائية، غالبا ما كنت أتوارى خلف السؤال عن الأمين أو السعي في طلبه، للظفر برؤية ليلي. ورويدا رويدا توطدت علاقتنا بشكل أعمق، حينها قللت من ترددي على بيتهم، حيث كنت أتسكع هناك دوما، لأنه أضحت بيننا أنا وليلى طبعاً، مراسلات ثم لقاءات ومواعيد مختلفة، طبعت ذلك الحب الفطري كختم أبدي على قلبينا العاشقين. إلى أن تزوجت ليلي من صديقي محمد المريبطو. صراحة، كيف له أن يعيش مع امرأة يعلم أنها كانت في علاقة مع صديقه المقرب؟

دوما ما كنت أطرح ذاك السؤال على نفسي بصوت مسموع. دون أن أتلقى أي إجابة مقنعة. وعلى الرغم من مضي وقت طويل لم أصل لفهم مسوغات ما حدث، وكانت أسئلتى الحارقة بمثابة صوت يولد من أعماقي المعطوبة لا يكاد يقابله في الجهة الأخرى أي صدى يذكر على الإطلاق.

هل جمال المرأة وحده قادر على أن يعمي البصيرة، ويجعل من بين الناس من يضحي بال عشرة والصدقة، ويتنازل عن كل ذلك وأكثر مقابل الظفر بامتلاكه؟ وهل ذلك يُسوّغ لهؤلاء الميل المرضي للبحث عن الوصول إلى ما في يد الآخرين؟ مجرد رغبة في الامتلاك! الامتلاك هنا يقتل المملوك في الجوهر، لأنه ينتزع منه حريته، أن تمتلك شيئاً وتضعه في قفص، حتى وإن أطلقت على ذلك القفص الملعون اسم الزواج، فأنت في النهاية قد دمرت ما ملكت في أعماقه الإنسانية.

أي بؤس حل بالناس، وأي لعنة لوثت عقولهم؟ فلست ناقما فقط على عمي الذي نهبنا واستولى على نصيبنا من الكعكة التي تركها جدي المرحوم، أو صديقي محمد الذي خذلني وطعن صداقتنا في العمق، بل بت ناقما على تطوان كلها، وأضحى بلدي يضيق ويضيق إلى درجة أنه لم يعد يتسع لي. هو ملك مشاع للاسبانيين والفرنسيين والغربيين الذين يعبثون بأشياننا الحميمة، أضحى المغرب نهبا لتلك القوى الاستعمارية المتعددة، والتي اشتركت في اغتصاب سيادته وتقاسمت الأدوار في انتهاك شرفه وفض بكارته.

حتى أولئك المثقفون والكتاب الغربيون الكبار الذين سحرتهم تطوان وطنجة وغيرهما من المدن، وطالما كانت إقامتهم تطول، وما أن تنتهي حتى يغلبهم الحنين ويعاودون الكرة، مرات ومرات. أغلبهم تحركهم شهواتهم ومجونهم وعبثهم! لا حبهم ووفائهم للمكان، جان جينيه العرييد العابث، الباحث عن الشهوة واللذة إرضاء لميوله المثلية، كان يتصيد الفتيان والشبان السود أو الغلاظ في مقاهينا وشوارعنا ويغدق عليهم بالمال والعطاء!

المفارقة الأخرى أني أقيم في ثالث بناية في الحي، وفي المدخل الثالث من البناية، وفي الطابق الثالث في بيت متواضع مكوّن من ثلاث غرف؛ شقتي لا تتجاوز السبعين مترا، بصالة متوسطة المساحة تضم ثلاث كنبات، وطاولة مستديرة يحيط بها أربعة كراسي، وصورة لي بالبذلة العسكرية وعلى ظهري بندقيتي مع رفاق السلاح إبان

الثورة التحريرية معلقة على الجدار، وعلى جنبها علقت شهادة مجاهد ممضية من قبل الرئيس هواري بومدين. وبغرفتين ضيقتين، إحداهما غرفة نومنا أنا وسكينة، تحتوي على سرير متوسط الحجم مغطى في غالب الأحيان بملاءة خضراء أو زرقاء باهتة اللون بالكاد يكفي جسدينا المتكورين، وخزانة ملابس من الخشب الأحمر تضم ثلاثة أبواب ومجموعة أدراج.

الغرفة المتبقية خصصناها للأولاد: إدريس وسعيد، بها سريران منفصلان وخزانة بابها دوما مفتوح، ومكتب صغير وضع عليه حاسوب وبجانبه آلة طباعة متعددة الوظائف، ومشجب خلف الباب والملابس موضوعة في كل مكان كيفما اتفق! وهناك مجموعة من الكتب غير المرتبة والأوراق غير المنسقة مبعثرة على الكرسي والأرضية وفوق المكتب والسرير بشكل فوضوي.

بقي لي على قيد الحياة ثلاثة أبناء؛ عبد اللطيف وإدريس وسعيد. الأول هرب من البيت، وبعد فترة سمعت أنه رحل إلى المغرب، ومن حينها لم يصلني عنه أي خبر، أما الولدان الآخران فهما مقيمان معي. هكذا كانت لي مصادفة غريبة مع الرقم ثلاثة، وبت راضيا بقدري خيره وشه.

2

كنت أرى الجميع يتكالب على الثورة التحريرية التي خضناها بشرف، ولم يسلم من همزهم ولمزهم حتى رموزها. وأدرك بوضوح مدى تحسرهم وتألّمهم على خروج فرنسا من الجزائر صاغرة بعد استنفاد كل محاولاتها الفاشلة في البقاء.

لم أرتح أبداً لالتحاق الضباط الذين كانوا في الجيش الفرنسي بجيش التحرير الوطني إبان الثورة، كما لم أطمئن لتبوّئهم مناصب سامية في الجيش الشعبي الوطني بعد الاستقلال. فلطالما كنت متوجساً منهم، ولم أكن مقتنعا على الإطلاق بأن الذي حمل السلاح في وجه إخوانه المجاهدين، سيأتي يوم ويكون بجانبهم في الكفاح! كما كنت أرى خطر وصول هؤلاء إلى قيادة الجيش ثم إلى السيطرة فيما بعد على دواليب الحكم في البلد!

وهو ما حدث فعلا!

الشباب اليوم متذمر مما آلت إليه أوضاع البلد، يصدعون رؤوسنا صباح مساء بشكواهم وضعف حيلتهم، يتحدثون عن حقوقهم فقط، الحق في منصب عمل، الحق في سكن، الحق في حياة كريمة. ولا مرة تسمع هؤلاء يناقشون واجباتهم، ما هو المنوط بهم في خدمة هذا الوطن المفدى والتضحية في سبيله إن استدعت الحاجة.

لما كنا في سنهم كنا مختلفين عنهم، حررنا وطننا بأكمله من ريقة
أعتى قوة استعمارية في العالم، ثم خضنا تحدي بناء بلد مستقل
حديثاً، مستنزف ومنهك تماماً.

هؤلاء الشباب يثيرون الاشمزاز بنواحهم وعجزهم، لا همّ لهم
سوى الحصول على نصيبهم من الكعكة، كعكة الريح البترولي.
سيبيعون البلد الذي حررناه من أجل الحصول على المال، أو من
أجل الحصول على متع زائلة. ويزعمون أنهم مظلومون ومقهورون، لا
يجيدون غير إتقان دور الضحية. البلد يتربص به الكثير من الأعداء،
والكل لعباه يسيل طمعا في خيراتنا وثرواتنا، وينتظر بشغف للنيل
منا في أقرب فرصة متاحة، لا يؤتمن لهم جنب، هناك مؤامرة في
الداخل وفي الخارج.

شبابنا مخدرون بمشاكلهم وقضاياهم واهتماماتهم الوهمية،
مقتنعون أننا بمنأى عن تلك التربصات وتلك التقلبات والأعاصير
التي عصفت ببلدان مجاورة وقريبة. ما حدث لغيرنا يجعلنا نفكر
ألف مرة، قبل أي خطوة نخطوها، أن نكون يدا واحدة وصوتا واحدا
في وجه أعدائنا والمتربصين بنا. ما يجعلنا أكثر مناعة وأكثر حصانة
واستعدادا لمقاومة أي خطر قادم أو تهديد محتمل.

سبق، وفي أكثر من مناسبة، أن حذرت سعيد وإدريس ونبهتهما
بالقول:

- إن الخطر يتقدم نحونا ولا فائدة من تجاهل الأمر كغرس
رؤوسنا في الرمل كالنعام، علينا مجابته بشجاعة، وإلا فما حدث
لغيرنا سيحدث لنا.

ذاك الصباح كنت أذرع الغرف بحثا عن صورة جمعتني بعبد
المجيد بن منصور ونحن نرتدي قشاييتي صوف وعلى ظهرنا
بندقيتان بارزتان، كنا حينها في أوج شبابنا، رمينا كل شيء خلف
ظهورنا استجابة لنداء الواجب.

كنا مختلفين تماما عن شباب اليوم، هؤلاء الشباب الذين لا همّ لهم إلا إشباع ملذاتهم والجري خلف شهواتهم! والذين لا يصغون لنصائحنا نحن جيل التحرير، متوهمين أنهم أذكى منا، وأكثر معرفة وخبرة بشؤون حياتهم وتصاريقها، نحن الذين عرضنا حياتنا للموت لأجل أن ينعموا هم بخيرات الاستقلال.

جيل متعجرف بليد الذهن يقتات من الأوهام، توهّموا أنفسهم أبطالاً! لا بطل في هذا البلد غير جيلنا، أما هم فأبطال خرافيون يصارعون طواحين الهواء.

فتّشت عبثا في كل مكان، لم أعثر على تلك الصورة.

في رواق البيت لمحت سكينة وهي تنفض ذراعها بعد أن تجاوزت ستار إطار باب المطبخ المملّخ بالمرق. سددت إلي نظرة مقتضبة وواصلت طريقها من دون أن تنبس ببنت شفة، نظرت إليها بنوع من الاستهجان بسبب حركتها تلك، ثم سألتها بنبرة استغراب:

- أين إدريس، لم يظهر اليوم؟

- لم ألتق به هذا الصباح على طاولة الفطور، لأنه خرج باكرا على غير عادته قبل أن أنهض من فراشي.

لم أضف أي تعقيب على كلامها.

في صالة البيت كان سعيد واقفا يعبث بأزرار أداة توجيه التلفاز، القنوات تتقاذف أمامه الواحدة تلو الأخرى. إلى أن وقف جاثما أمام الشاشة العملاقة يتابع لقاء عرض كتاب على قناة الجبيري، ثم فجأة غير القناة.

كنت خلفه، أمرته أن يرجعها حالا.

لاحظت بعض ملامح الحيرة التي اعترته، لم أبال.

استجاب لطلبي من دون تردد.

حدقت في التلفاز شابكا يدي على صدري من شدة ذهولي بما كانت تعرضه تلك القناة العمومية. قرأت اسم ضيفة اللقاء المكتوب وسط أسفل الشاشة (فريال بن شيكو فيرون).

المرأة كانت تستحضر بطولات جدها البشاغا بن قانة بكل فخر واعتزاز، ومنشط اللقاء يتابع كلامها باهتمام ظاهر، دون مقاطعتها، مبديا موافقته بحركة من رأسه.

غير أنني في المقابل ظللت مشدوها، لا أعرف أأصدق ما أرى وأسمع أم أكذب!
هل أنا أحلم أم أهلوس؟

لاحظت أن سعيدا كان يتلملم لأنه لم يدرك ما كان يتوزعني لحظتها، انتهت إلى نظراته الحائرة وهو يترقبني تارة ويحدق في الشاشة تارة أخرى. وحتى أشبع بعضا من فضوله الحارق وأبدد سحب حيرته، خاطبته دون أدنى مقدمات أو اعتبارات لردة فعله، قائلاً:

- لقد قطع هذا الرجل أذان ورؤوس مئات الجزائريين، وقدمها كعربون ولاء ووفاء لأحد جنرالات فرنسا، كما قام بأعمال فظيعة أخرى يندى لها الجبين إبان فترة الاستعمار الفرنسي!

- مستحيل! قال سعيد صارخا، وهو فاغر فاه، غير مصدق. وتأملي متفاجئا ومستاء في الوقت ذاته من هول ما سمع.

- هذا الشخص سيء الصيت كان عميلا للإدارة الاستعمارية، وهو مجرم حرب أيضا، وكونه جد المؤلفة هذا لا يمنحها الحق في أن تصفه بملك الزيبان. وأن تتغنى بمآثره وبطولاته المزعومة.

أردف سعيد بصوت ممزوج بالغضب والمرارة:

- هذه إهانة أخرى لذاكرة الشهداء، فكيف تقوم قناة تلفزيونية عمومية بتمجيد ذاكرة قاتل ومعذب الجزائريين؟ تلك القنوات التي تصدع رؤوسنا صباح مساء بشعارات الوطنية، والواجب الوطني، وغيرها من المقدسات الأخرى!

لأول مرة أتفهم ضجر سعيد من تلك القنوات، وانصرافه لما كنت أرفع صوت التلفاز عاليا حين تبدأ أخبار الثامنة. حاولت أن أدعّمه في رأيه:

- كان الأجدر أن تهتم قنواتنا بمن خدم الثورة، بأولئك الأبطال الحقيقيين. ففي الوقت الذي كان فيه هذا البشاغا وأمثاله ينكلون بإخوانهم الجزائريين، كان هناك بعض من الفرنسيين والأجانب الذين ساندوا الشعب الجزائري بعدما وقفوا ضد إدارتهم الاستعمارية، واختاروا الدفاع عن القضية العادلة. كموريس أودان، وبيار شولي، وكلودين غيو، وفرانز فانون، والمئات من غيرهم.

انتقل سعيد إلى موضوع آخر:

- سبق لي وأن سمعت بالمعمرين والأقدام السوداء الذين رفعوا دعاوى قضائية لاسترداد ما يعتقدون أنها ممتلكاتهم العقارية، يدعون أنهم تركوها خلفهم بعد خروجهم من الجزائر تجاه فرنسا عقب الاستقلال.

- إنه عار علينا جميعا يا سعيد، هذه الأخبار تذلنا جميعا. تعرف أنه في منتصف ثمانينيات القرن الماضي التهمت الساحة غضبا بإقدام جريدة «Algérie-Actualité» الحكومية على إجراء حوار مع الجنرال السفاح مارسيل بيجار، أحد أهم ضباط فرنسا في حرب الجزائر، وصاحب مقولة: «التعذيب شر لا بد منه». والكارثة الأكبر أن صحفي تلك الجريدة ختم الحوار بـ«شكرا يا حضرة الجنرال».

- الأمر ذاته يا أبي بخصوص تشريف البشاغا بن قانة في قناة حكومية. المشكلة أن لا أحد يحاسب في هذا البلد. الكل يفعل ما يحلو له، دون عقاب أو تأنيب حتى.

لم تعد تصلني كلمات سعيد، فقط كنت أرى شفثيه تتحركان ببطء، وملامحه باهتة، ولغة جسده فاترة، وحفيدة البشاغا استحالت كمشخ مقزز على الشاشة الصامتة.

ظللت أفكر مكتوم الصوت في ملحمة (قالوا العرب قالوا)، كانت
تصليني أصوات النسوة القسنطينيات وهن يتغنين بها، كما كنت
أسمع موسيقى وطرب شيوخ المالوف بكلمات تلك الملحمة التي
تروي مآثر وبطولات أحمد باي وخيانة بن قانة. كما تذكرت حكاية
عقاب المناضل والمسرحي المكي شباح، وقفزت أمام عيني صورة
قيام البشاغا بن قانة بجره وسحله وراء حصانه، لمسافة تتعدى المائة
كلم، بعد اتهامه بتصريحات معادية له وللسلطات الفرنسية.

هكذا بدأت حكايتي مع عريفة الخياطة، دون مقدمات طويلة، أو مشطات مفتعلة، أو تمنع مبالغ فيه. في البداية قاذني حدسي إليها. كلما تصادف وأن لمحتها في طريقي تمشي، إما وهي قاصدة التبضع من المحلات القريبة، أو أثناء ولوجها مدخل البناية وصعودها درجات السلم الإسمنتية بكعبها العالي المطق، وجسدها المتمايس ذات اليمين وذات الشمال عن قصد وعن غير قصد، إلا واشرأبت نحوها الرقاب والتهمتها العيون بوميضها الحارق، فقد كان جسدها البض متوثبا وكل ما فيه يكشف عن ذلك.

كانت ممتلئة، «أين تلمس تجد»، كما يصف دوما إبراهيم صاحب مقهى أم درمان محبوبته المحتملة، لا هي ثخينة ولا هي نحيلة، لم تكن تعاني من أي عيب كأغلب أترابها من النساء، اللواتي أثقلت حركتهن كمية الشحوم البارزة، أو غزتهن الصفرة والجفاف كأنهن مجرد هياكل فوقها أسمال.

لها ذوق في الملابس والألوان، فقد كانت تختار ما ترتدي بعناية بالغة، وهو سر تناغم ملامح جسدها مع كل ما تلبسه. إذ ذاك كانت تتبع دوما حدسها في اختيار التصاميم والألوان والأقمشة، تحب التمتع بالحياة وتهوى الألوان الهادئة؛ غالبا ما كنت أراها بالزهري الباهت أو الزهري الناعم، كل تفاصيل ملابسها تعبر عن شيء ما في داخلها، فتصاميمها غارقة في الأنوثة، لكنها في ذات الوقت تعكس

شخصية امرأة قوية، فهي كما وصفتها تعرف جيدا كيف تختار أثوابها التي تمنحها سحرا لافتا قلما تجده في امرأة. فتلك الثياب والملابس التي ترتديها ليست عادية، وغير مكررة، ولا تظهر أجزاء من جسدها لكنها مغرية في الوقت نفسه.

مضت فترة طويلة وأنا أتلصص على مشيتها، وقد بدت لي من أول ما لمحتها في ناصية الشارع الذي يعج بالباعة المتجولين وبطاولات بيع الخضار والفواكه أنها امرأة لعوب. ولما جاءت فرصة غير منتظرة وغير مواتية تماما، لم أتركها تضيع مني، حاولت أن أستغلها.

لما أمعنت النظر في عينيها فهمت كل شيء، على الرغم من أن الفترة التي تقاطعت فيها نظراتنا مرت كلمح البصر، هي نازلة وأنا صاعد في درج البناية، كان بشير مزيغاش معي، كيف لي أن أهرب منه، وهو ملتصق بي كالشريط اللاصق، حيثما يراني يحشر نفسه، كرهت منه ومن أسئلته المنفرة ومن فضوله الفج.

استرقت النظر من دون أن ألفت انتباهه، شتت تركيزه بالكلام، حظيت بمجرد ثوان معدودة، إلا أنني تمكنت من قراءة الكثير من الأشياء في ذلك الزمن الهارب والمتواطئ.

اعترتني لحظتها رعشة رهيبية سرت في كامل جسدي من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، كادت أن تقذف بقلبي صوبها بمجرد رؤية عينيها اللوزيتين الكبيرتين وحركة رموشها الآسرة.

لأيام متتالية وتلك الصورة لم تغادر مخيلتي، أينما وليت وجهي كنت أراها.

أما لما سمعتها تتكلم بغنج ودلال، أيقنت دون أدنى مجال للشك أنها كما توقعتها، وأن فراستي سليمة؛ كما لم يسبق وأن خانتني من قبل، إطلاقا.

صوتها يلخص كل الجمال، مضى رنينه يخترقني، ويؤنس وحدتي بعدوبته ورقته وحنوه، فقد كان صوتها الأسر كنه عذب يروي بتدفقه

روحي العطشانة، أنا الرجل المتعب من الخييات، المثقل بالآلام، لم أعرف الفرح، ولم يكتب لمسراتي أن تستمر.

من يومها تطور مجرى الأحداث، ونشأت بيننا أمور بقت متوارية عن الأنظار، فقد بذلنا قصارى جهدنا على إبقائها بعيدة عن عيون قاطني العمارة المتربصة بالأنفاس وبكل كبيرة وصغيرة، وبتنا نتقاسم أسرارنا وجنوننا، وكان جل ما يحدث بيننا طي السر والكتمان. فهي المرأة الوحيدة من بين كل من عرفت، التي بإمكانها أن تخدم نار اللهفة والشوق والغواية، ولها القدرة في ذات الوقت على أن تلهب كل النيران.

أعتقد أنني لم أعد أشتهيها فقط، فقد استحال ما كان بيننا إلى حب عميق. وليس في الأمر أي شيء يدعو للتفكير أو التفلسف، فعلى قدر بساطته كان محض صدفة لا غير، وكل ما في الحكاية وهي طبعا وليدة المصادفة، أنني وجدت في عريفة ذلك الجانب الذي ينقصني، والأمر ذاته حدث معها.

إلى أن حاول النزق شكري ابن ميلود قرباجة الجار الساكن مقابل بيت عريفة، الباب بالباب، أن يهدم جبال الأسرار تلك بمعول الطمع والتهور. فذات مساء على غير عادته اقترب مني، ثم ألقى علي التحية:

- مساء الخير عمي عبد القادر.

ردت عليه بمثل تحيته، وعلامات الاستغراب بادية على وجهي:

- مساء الخير ولدي.

رفع رأسه وثبت عينيه في عيني ثم فتحهما أكثر، وبعدها أردف قائلا:

- تعرفني لا أحب اللف والدوران، من الأخير «أَزْرَعُ يَنْبُتُ» كما يقول المثل الشعبي.

شتت تفكيري بكلامه. حاولت أن أسترجع كل ما يمكن أن يكون ذا علاقة بكلامه، فعلت ذلك عبثا من دون جدوى. لم أصل لأي شيء ذي قيمة. لذلك سألته مستغربا:

- كيف، ما قصدك؟

تنفس بملء ما فيه، وأعتدل في وقفته مبديا بعض التحدي، ثم أردف:

- رأيت كل شيء بأمر عيني.

حاولت قدر المستطاع أن أتماسك، وأن لا أبدي أي شيء قد يورطني مع هذا المجنون. وبنوع من الحيرة التي لم أفر على إخفاء علاماتها المباغثة، سألته مقاطعا:

- عن ماذا تتكلم بالضبط؟

بمجرد أن أكملت السؤال بادرني قائلا:

- شاهدت ما يدور بينك وبين عريفة الخياطة.

كان المجرم يتجسس علينا من عدسة منظار باب بيتهم. فقد لفت انتباهه أنني لما أنزل من الطابق الثالث وبمجرد أن أكمل درجات الوصول للطابق الأول حيث يقيم، حتى يفتح باب بيت عريفة نصف قطر أو أقل بقليل، وهو رأيي - حسب ما أخبرني فيما بعد- أنجاوز عتبة باب البيت أكثر من مرة.

اعتراني اضطراب وتوجس كبيرين، وبصوت متلعثم خاطبته:

- أخفض صوتك، تريد أن تفضحني. ما دخلك أنت في شؤون الكبار. الأفضل لك أن تنسى الموضوع، ولا تردد سيرتها على لسانك مرة أخرى.

ارتسمت على وجهه ابتسامة ماكرة، ثم تنحج، وبصوت كله إصرار خاطبني قائلا:

- لن أصمت هكذا دون مقابل. أريد مليون سنتيم.

دارت بي الدنيا واعترتني حالة ذهول. أحاول أن أثبت رجلي اليمنى على الأرض، كانت ترتعد بدون توقف.

لا أدري ما أصابني لحظتها، يدي بدأت ترتجف كذلك. أعتقد أن ضغطي ارتفع. بدأت أفقد السيطرة تدريجيا على الغضب الذي بدأ

يعتمل في داخلي، وبصوت أجش يشي بكل ما اعتراني من قلق
وذهول قلت له وأنا أدفعه من معصمه:

- غدا سأحضر لك المبلغ، اليوم البوسطة ما تخدمش. أسلمك
المال شرط أن تبلع لسانك، وإلى الأبد. فهمت.

رد بإيماءة من رأسه مبديا موافقته على كلامي، لم يجرؤ هذه
المرة على رفع عينيه اللتين أبقاها مسمرتين بالإسفلت. ثم غمغم:
- حاضر، حاضر. فهمت.

نظرت إليه باشمئزاز، وتلا ذلك صمت خانق.

الملعون يحاول ابتزازي مقابل سكوته، ماذا أقدر على فعله، وأنا
أشبه بالميت في يد من يغسله؟

لا مجال أمامي سوى الرضوخ لمطالبه.

ليلتها لم يغمض لي جفن، بقيت طيلة الليل وأنا أتقلب في
الفراش، بالي مشغول بما دار بيني وبين هذا المخلوق السافل القدر،
فقد كرهته لدرجة اشمئزازي من نطق اسمه.

كنت أنتظر ميلاد اليوم الجديد بفارغ الصبر، كمن ينتظر مولودا
جديدا على أحر من الجمر. مضت الدقائق والساعات مملة ورتيبة،
كأن الزمن يتباطأ عن قصد كي يغيظني.

مع تباشير الصباح بكرت قاصدا مركز البريد كي أسحب مبلغ المال
المطلوب، وأغلق نهائيا باب جهنم الذي فتحه علي ذاك الملعون، لن
أمنحه فرصة إفساد ذلك العالم الجميل الذي بنيناه أنا وعريفة، بكل
مباهجه وأفراحه وحميميائه.

لن أسمح له، أو لأي كان من شياطين الإنس أن يخرجنا من جنتنا
تلك، سأفعل أي شيء ممكن أو مستحيل، لا يهمني المال أو أي مقابل
آخر، بقدر ما يهمني أن أحافظ على بقاء عالمتنا غير المرثي الذي
نفعل فيه ما بدا لنا، بعيدا عن قيود وإكراهات عالم الناس البائس.

أسلمه المال وأنتهي تماما من وجع الرأس.
فاجأني طابور طويل للرجال وآخر قصير للنساء عند بوابة بوسطة
البريد المغلقة.

أعتقد أن هناك من يبيت الليل كله بجانب السور المحيط بالمركز،
خصوصا من المتقاعدين والشيوخ؛ فذات سفر إلى العاصمة انتبهت
إلى جماعة أغلبها من كبار السن، مقرفين وجالسين على حجارة
مغطاة بورق الكرتون الممزق أو فوق مقاعد خشبية صغيرة جلبوها
من بيوتهم، الواحد خلف الآخر، على شكل صف باتجاه البوابة. لم أعر
الأمر انتباها وقتذاك، لكن اليوم أدرك المغزى من تجمعهم حينذاك.
بعد انتظار ثقيل فتحت الأبواب، انفرط عقد الطابور، وأطلق
الجميع في حركة عشوائية مسرعين ومهولين، وبالقرب من مدخل
القاعة زاد التصاقهم وتدافعهم وعلت جلبتهم وضجيجهم.
كانت القاعة تغلي والفضوى تعم كل المكان، وكنت أعطس من
شدة الحساسية، فبعض الأجساد المتزاحمة تفوح نتانة وقذارة كجثة
عفنة.

نظرت إلى ساعة يدي، الثامنة وست دقائق!
مازال الوقت مبكرا.

ذاك اليوم بقيت إلى غاية المساء، أتحمل هراء موظفي البريد
وحكايات بعض الغوغاء الذين كانوا مصطفين معي في الطابور.
تارة ينفد المال من الصندوق، وطورا تتوقف الموظفة عن الرقن
على لوحة مفاتيح الحاسوب الذي أمامها، وتفتح عينيها على آخرهما
محدقة بنظرة بلهاء صوب الشاشة، ثم تنخرط في الثرثرة مع زميلاتها
أو في قتل الوقت الميت بالتسكع بين مكاتب المركز وهي تمضغ
العلك كبقرة تجتر ما أكلته من كإل، أعتقد أن تلك العلكة من فرط ما
مضغتها فقدت لونها وطعمها، تحاول النفخ في العلكة التي في فمها
بطريقة مقرزة، بشفتيها المنتفختين اللتين تخفيان خلفهما أسنانا
ملطخة بالسواد.

ونحن جاثمين في مكاننا، مستسلمين لقدرنا، لم نتحرك قيد أنملة، فأى إشارة أو حركة غير مدروسة قد تجلب لنا متاعب نحن في غنى عنها، في هذا البلد تتعلم الاستكانة والرضوخ مع حليب أمك، فأى موظف بيروقراطي تافه بإمكانه إدخالك في متاهة لا مخرج لها، الحيلة والحذر من هكذا رد فعل جعلتنا كالخراف التي تضع رقابها تحت رحمة سكين الجزائر. أعتقد ونحن في هذا الموقف أن المساجين أكثر تحررا منا، وأن أي موظف عمومي بغض النظر على أهمية منصبه أو حقارته قد يكون أكثر جبروتا وتنكيلا وخشية من أي سجان.

لم يتجرأ أي منا على النهي عن هذا المنكر، ولو بكلمة، الكل راض وراضح لمشيئة تلك الموظفة المستهترة. إلى أن انتفض الرجل الذي أمامي في الطابور حانقا:

- لو كان رجل يعمل في مكانك، لأخذنا أموالنا وانصرفنا من ساعات. الرجال تفتك بهم البطالة وأنتن تنعمن بمناصب الشغل، زاحمتهم في كل شيء، حتى في سياقة السيارات، وفي النهاية لا شغل ولا مشغلة غير تعطيل خلق الله.

كنت أراقبه خفية بطرف بصري، إنه كهل يطرق أبواب الشيخوخة، يرتدي سترة دونغري وتحتها قميص عليه خطوط زرقاء، شعره لا هو أسود ولا هو أبيض، حاجباه مقرونان بشعر كثيف يكاد يلامس عينيه البنيتين، يظهر أنه حلق وجهه هذا الصباح بعناية فائقة قبل أن يخرج، أنفه طويل بعض الشيء لكنه لم يفسد وسامته، يرتدي سروالا فولور داكن اللون، وحذاء متواضعا وغير ملفت بشكل كبير.

حل صمت ثقيل داخل المركز، كل الأبصار مصوّبة نحو المكان الذي يصدر منه الصوت، تترقب بفضول كبير لاكتشاف صاحبه وسط الزحمة التي تعم المركز.

هذا الوضع شجع الشيخ على مواصلة كلامه والاسترسال في التذمر، على الرغم من أنه كان يتنفس بصعوبة وبالكاد يلحق الكلمة

بالأخرى، وعلى الرغم من المشقة يظهر أن الغضب الذي كان يثور داخله حرر لسانه ومنحه الجهد والطاقة كي يفرغ تلك الشحنة الثقيلة:

- لو كان الأمر بيدي لسننت قانونا يحرم على المرأة العمل والخروج من بيتها، ولا أستثني سوى الأمور التي تقتضيها الضرورة ويبيحها الشرع. عمل المرأة هو السهر على تربية أبنائها ورعاية زوجها والحفاظ على أسرته.

اعترت ملامح المتدافعين في الطوابير مسحة من الرضا، فالشيخ ناب عنهم وعبر عن صوتهم الداخلي المكتوم، فقد أشفت كلماته بعضا من غيظهم.

تململُ من الوقوف، ولما التفت خلفي وقع نظري على زين العابدين لَعْرَجٌ وهو جالس بالقرب من طاولة مهملة يحاول إخفاء ضحكة صفراء انفلتت منه دون قصد، بالانكباب على تعبئة رصيد شيك للمرأة المتسمرة أمامه، فهو يحاول جاهدا كسب ود موظفي البوسطة، فيضطر في سبيل ذلك إلى القيام بشراء طلبياتهم وتلبية حاجاتهم؛ كجلب القهوة والشاي والسندوتشات إلى مكاتبهم وشبابيهم.

يقوم بكل تلك الأدوار وأكثر من أجل غض طرفهم عن ارتزاقه من تعبئة الشيكات والحوالات المالية لكبار السن وللعاجزين عن الكتابة.

يقال أن عرجه ناتج عن إصابته بشظية متفجرة من قنبلة تقليدية لما كان مجندا في صفوف الجيش، في أتون الحرب الأهلية بين أبناء البلد الواحد، التي قطفت أرواح مئات الآلاف من الضحايا الأبرياء.

فجأة ظهرت الموظفة القميئة، وراحت ترغي وتزبد بطريقة هستيرية حتى كادت حنجرتها أن تنفجر من شدة صراخها، فكان رأسها يتحرك كراس أفعى، وعيناها تتراقصان غيظا ووجهها الحاد ما ينفك يلتفت في كل الاتجاهات كالممسوسة.

كانت تقذف بكلماتها صوبنا دون استثناء، كمن يفرغ رشاشه في وجه كل من يعثر عليه أمامه. دوما الحجج ذاتها، يتعطل النظام الالكتروني بسبب الضغط، أو بسبب ضعف تدفق النت. لكن أغلب من في الطابور متيقنون أن العطل مقصود وتم بفعل فاعل من داخل مركز البريد، كي يتاح لهم التهرب من العمل والركون للراحة والكسل، دوما هذا هو ديدن الغالبية العظمى من موظفي الهيئات العمومية. على كل خرجت من البوسطة منهكا، ومتهالكا، ومعنوياتي في الحضيض. غادرت ذاك المساء البوسطة خالي الوفاض، كيف أفعل مع الملعون الذي وعدته بإحضار المال؟

بينما كنت أعبّر الشارع المقابل للسوق المغطاة، أسمع الأطفال ينادون الواحد تلو الآخر:

- «يا الطاهر يا المهبول.. يا الطاهر يا المهبول...».

سرعان ما يكررونها، وبعدها ينقطعون، فجأة يجرون هارين، هنيهات، ثم يتوقفون متفرقين، يلتقطون أنفاسهم، ويواصلون عبثهم الثقيل. يستأنفون جريهم من جديد، يظهرون ثم يختفون بسرعة، في مداخل العمارات المحيطة، وخلف البنايات القريبة، أو وراء أي شيء صالح للاختباء.

لا أثر لهم كأنهم تبخروا في الهواء.

المسكين يرغي ويزبد، أراه يستشيط غضبا، وهو يلهث من شدة الجري والبحث عنهم، هنا وهناك، وفي كل الأمكنة التي تصلها قدماه. وجهه يكاد ينفجر من شدة الغيظ، وهو يصرخ فيهم سبا وشتما، لم يترك ولم يبق أي كلمة، لا كبيرة ولا صغيرة في قاموس الكلمات النابية، إلا وقذفهم بها.

هؤلاء الأطفال لا يسلم من أذاهم عاقل أو مجنون.

أباؤهم يلدون ويتكاثرون فقط، ثم يرمون ببرازهم على خلق الله. في هذا الحي لما يتذمر أحدهم من السلوكات الشاذة والممارسات الطائشة لهؤلاء الأطفال، لا يتورع عن لعن أبائهم بصفة

مباشرة وصريحة، وفي أغلب الأحيان هناك اتفاق غير مقصود أو ربما مقصود بصفة رمزية غير معلنة على الأقل، بين سكان الحي أو سكان الأحياء القريبة على صيغة موحدة في الوصف، فغالبا ما يتم نعت هؤلاء الأولياء بالكلاب التي تترك جرائها في عراء الشوارع السفلية. دوما ما كان حدوث هذا الأمر لما يتصادف مع حضوري، يشفي بعضا من الغيظ في داخلي، فدوما ما كنت أرفع عن هؤلاء الأطفال الشياطين مسؤولية أفعالهم، على الرغم من بغضي الشديد لهم، وكراهي الذي لا يوصف لطفولتهم المريضة والمشوهة والمنحلة، التي نبتت وانتشرت مثل ورم خبيث في أغلب الأحياء.

كنت ألعن في داخلي آباءهم، وأشبهم بالدواب أو بما هو أشد، يتناكحون وكفى، لا مسؤولية، ولا تربية، ولا رعاية، ولا هم يحزنون! بعدها يتباكون: «لماذا أولاد فلان وعلان نجحوا وصلح فيهم ربي، وأولادنا نحن فاشلون، وخايبون، وما قرَّش فيهم».

طبعا كان كل هذا يدور في خاطري، وحتى وإن فكرت به بصوت مسموع، لم يسبق وأن تجاوز الأمر جدران بيتي.

في الصباح لما أقصد كشك الجرائد المقابل لدار البلدية، كثيرا ما كنت ألمح الطاهر سموك البهلول يتأبط جريدتين. ففي كل صباح جديد كان يقطني جريدتي الشرق الجمهوري والوطن الناطقتين باللغة الفرنسية، الأولى جريدة محلية والثانية وطنية. وكل مرة هناك من جيرانه أو من معارفه من يدفع عنه ثمن الجريدتين. على شرط أن يشرح لهم نظريته المسماة: «الرُّهْجُ في البارَّاج». طبعا من أجل التسلية التي يضيفها الطاهر بجديته الظاهرة في الحديث وقصفه المتهكم على المجتمع بكل شرائحه، دون استثناء أحد، حتى ولو كان هو.

لما كان يسترسل في الشرح، كان الأمر يروقه كثيرا، لما كان يظهره من سذاجة وبلاهة، تراهم منبسطين ومأخوذين خلف كلماته اللاذعة والجارحة والناقمة. والطاهر بمعطفه الطويل المتسخ

والممزق، وشعره الأشعث والأعبر، ولحيته غير المتناسقة، والتجاعيد التي بدأت تظهر فوق عينه السوداءوين، وبقعة شبه زرقاء أسفلهما كسحابة سوداء داكنة، يحرك يديه في كل الاتجاهات، محاولاً إقناعهم بمنطق نظريته، كأنه في مدرج يحاضر عن نتائج دراسة مهمة.

في البداية كنت أسترق السمع، وفجأة غمرتني رغبة في الاستماع إلى الطاهر، جذبتني كلماته، لذلك اقتربت. وكلما كان الطاهر يواصل، زاد التفاف الخلق من حوله على شكل حلقات متلاصقة، لا تتوقف عن الاتساع. ما جعلني أسترجع تفاصيل حلقات ساحة الهديم بمكناس أو ساحة الفنا بمراكش، وغيرها. كما كانت الابتسامات الماكرة ترتسم على وجوه الحشد، والضحكات تتعالى بفعل السخرية السوداء التي كانت تطبع كلمات الطاهر.

كان اليوم ربيعياً لكن أشعة الشمس كانت جارحة وحارقة بعض الشيء، كنت تارة أحمي عيني بكف يدي اليمنى من أثر انعكاسها، وطوراً أتركها بلا حماية ترف باستمرار. لم أبال بأشعة الشمس، كنت لحظتها وسط الحشد، أصيخ السمع وكأن على رأسي الطير، ثابتاً في مكاني، لا أتحرّك ولا أستدير خلفي أو في أي اتجاه آخر، عدا أن نظري وكل حواسي كانت كلها مصوبة إلى البقعة المظلمة التي كان يقف عليها الطاهر، في الحقيقة كنت مسحوراً بكلامه، مزيج غريب بين الجنون والعقل! على الرغم من حماسته في الشرح، وقدرته على الكلام دون انقطاع، إلا أنه بدا خائباً، ويشعر بنوع من الغثيان من هذا «الشعب الغارق في بؤسه وتناقضاته ونفاقه واستكانته، إلى درجة أنه مستعد لمُدِّ رقبته بكل رضا وخنوع لكل من يرغب في ذبحه من الوريد إلى الوريد، للظلاميين سادة القتل والتخريب، كما لولاة الأمور وعبدة السلطة والمسؤولية سادة النهب والفساد، مهما كان ترتيبهم في السلم الوظيفي أو في هرم القيادة»، كما كان يردد في كلامه.

الجميع وفق رأيه: «متورط وغارق حتى الرأس في الفساد والخراب». على الرغم من اعتقادي بأنه بالغ بعض الشيء في هذا الوصف الشنيع.

لكن لا يعني أن عدم اتفاقي معه، واعتراضي على ما كان يقوله، سينفري من الاستمرار في الإصغاء لكلامه، بل بالعكس، واصلت الإصغاء له بكل اهتمام.

من حين لآخر كان يتعالى صوت نشاز ثم يخفت، حاولت أن أتبين مضمون كلمات ذلك الصوت، بصعوبة تمكنت من تفكيك لغزها، كان صاحب الصوت يردد:

- «أعبها مهبول تشبع كسور.. ياو فاقوا..».

على الرغم من أن الطاهر واصل كلامه في البداية، غير مبال بمصدر الصوت وفحواه، فإنه مع تكرار الأمر، بدا منزعجا بعض الشيء، من صخب التعليقات والهمهمات والقهقهات التي أثارها ذلك الصوت؛ من خلال تقطيب جبينه، وأصابع يديه التي ما ينفك تارة يحك بها أرنبة أنفه، وطورا يمسح بها جبهته، ثم ظهر عليه التشنج والاضطراب والتلعثم في الكلام.

بدأ بعض الحضور ممن هم في الحشد يتضايقون ويصرخون على صاحب ذلك الصوت:

- «أششت..أسكت..أسكت.. أقفل فمك.. بلِّغ فمك».

خمد ذلك الصوت النشاز، مستسلما وراضخا لرغبة الناس. هدأ الحشد، وعم السكون المكان، عدا صوت الطاهر الذي ساد مجددا، وأستأنف حضوره الطاغي، فالجميع يصغي بانبهار لما كان يتلفظ به. حدثنا الطاهر يومها عن حكاية نظريته «الرهج في الباراج»، وأطنب في التفسيرات والشروحات المستفيضة كأنه مجنون في ثوب عاقل؛ مما قاله إن « هذا الشعب من رأسه إلى ذيله، ميؤوس منه، ولا خير يرتجى منه، ولا جدوى من بقائه، ويجب تطهير البلد منه. لا حل متاح يخلصنا من شر هذا الشعب البائس، إلا تسميم كل السدود التي يتزود منها بالماء الشروب». ونذر نفسه للقيام بهذا الواجب المقدس.

كما أخبرنا الطاهر أنه «بعد أن يطمئن على نجاح مهمته، طبعاً من خلال موت جميع أفراد هذا الشعب، دون استثناء لا النساء ولا الأطفال ولا العجائز، حينها سيأتي دوره، ويشرب من هذا الماء المسمم عن طيب خاطر. عندها لا يبقى أي أحد على قيد الحياة، وفي انتظار أن يأتي الأمل على يد شعب آخر، يستوطن أرض هذا البلد، ويعمرها من جديد».

من حين إلى آخر كنت أرى كتابات باللغة الفرنسية على أرصفة الشوارع، وعلى بعض المساحات القريبة من المقاهي والمحلات التجارية، كنت أشد على فتحتي أنفي بالسبابة والإبهام، الرائحة كريهة ولا تحتتمل إطلاقاً.

لما سألت، أخبروني أن الطاهر سموك البهلول يبيت الليل يخط أرصفة الأحياء القريبة بالغايط. إلى أن شاهدته ذات صباح باكر يغرز أصبعه في أعماق دبره، بطريقة مقززة ومقرفة إلى درجة أنني تقيأت من بشاعة المنظر. لم أستطع التوقف، أخرجت كل ما في أمعائي. ومرات أخرى كنت أراه طوال اليوم إما نائماً أو يهرول وينادي على الأَشهاد:

- «يا ناس ما بقا والو.. بقا غير الماء يحما.. الدنيا بنت كلب.. والناس عميان وراها.. كلاونا الكوافة والجبورة.. ولينا أحنا أولاد البلاد ضايعين.. وهما يحكموا بأحكامهم.. وجوه البق، دمنا كامل مصوه.. ما يشبعوه، يوكلوا كي الحلاف، الجيعانين في كروشهم.. ما يحشموش، وجوهم صحاح ما يعرقوش، وما يعرفوش القدر.. بلا أصل.. لا دين ولا ملة..فرنسا خرجناها بالقوة وهم استعمرونا.. وجوه نمي..تفووووه.. الخ».

تلك الجمل ما فتئ الطاهر يكررها بمواظبة وحرص شديدين، كأنه يؤدي طقوساً دينية غريبة، كانت أشبه بصلوات يرددها كل يوم في أوقات منتظمة بعينها، كلما حطت ركائبه في شارع ما أو في مكان

يتجمع فيه الناس، كالسوق الفوضوي، أو بمحاذاة المحلات المتراصة بالقرب من بعضها دون هامش أو مساحة.

سمعت من بشير مزيغاش أن الطاهر قبل جنونه كان يشغل منصبا مهما في مركز السيفوض للتكوين المعروف والدائع الصيت، والمصنف آنذاك الأول إفريقيا. كان حينذاك يحسب له ألف حساب؛ سلطة المنصب ونفوذه منحاه هيبة ووقارا وكلمة مسموعة.

الرجل أكمل دراساته العليا في فرنسا، ومن فترة لأخرى يتم إرساله في بعثات تكوينية لتنمية معارفه ولتطوير كفاءته واكتساب مهارات مهنية جديدة، إلى بعض الدول الأوروبية وعلى رأسها الشرقية، وبحكم أن هناك شراكة مع الاتحاد السوفياتي سابقا، كان يتردد كثيرا على موسكو وكيف الأوكرانية على وجه الخصوص.

لكن بعد تسريح العمال في فترة التسعينيات، وغلق أهم المؤسسات والشركات العمومية بطريقة تعسفية، وفي الأول والأخير كانت اليد الطولى لرجال يدعون الوطنية، أصحاب المهام القذرة، في تطبيق تلك السياسات الليبرالية المتوحشة التي أقرها خبراء صندوق النقد الدولي.

كان الطاهر ضمن بقايا الموظفين والعمال الذين فرض عليهم خيار التسريح، كان يعتقد أنه سيتمكن من خط حياة جديدة بتوظيف مبلغ المال الذي منح له في إطار التسريح الطوعي.

في البداية اعتقد أن المبلغ مهم، وبإمكانه أن يوفر له حياة كريمة من خلال استثماره في مشروع إنشاء شركة صغيرة.

مع مضي الوقت بدأ المال ينفد رويدا رويدا، فزوجته استماتت في طلب تجديد أثاث البيت وفرشه، وفي اقتناء الكماليات الأخرى. على الرغم من أنه عارض الفكرة في بداية الأمر، لكنه استسلم لرغبتها تلك بعدما استنفدت كل أساليب الإغراء وطرق الضغط من أجل غايتها.

ذات صباح نهض على حقيقتين مفزعتين؛ الحقيقة الأولى هي أنه أصبح خالي الوفاض؛ صرف كل المال الذي كان معه، ولم يبق منه أي فلس. إلى أن أصبح عاجزاً عن اقتناء كيس حليب لأولاده. كما أن زوجته حزمت حقائبها وغادرت البيت دون أن تشعره بخبر رحيلها. هربت من دون رجعة، وتركت له بنتا وولدين، أحدهما معوق توفي فيما بعد. عاش أسوأ الأحوال. تبنت أخته الزهرة التكفل بابنه وابنته التوأمين. من كثرة المشاكل، والعيش بمفرده، جن بعدها.

في طريق العودة إلى البيت، صادفت عديلة المومس خارجة من محل سلمى الحلاقة. يلحقها صرير الباب الذي أغلقته كيفما اتفق، وانطلقت مخطوفة إلى سيارتها المركونة عند الرصيف، وهي تضغط بسبابتها على المفتاح بشكل ظاهر.

كنت قريبا جدا منها، إلى درجة أن صوت سيارتها وهي ترغي صدع أذني.

تجاهلتنني، ولم تكد تلتفت باتجاهي.

كانت في كامل أناقتها، بشعرها الذهبي المنسدل، وقد غطى عينها اليمنى، وهي ترتدي المعطف الأحمر الطويل، وتنتعل الكعب العالي. كانت دوما حريصة على الظهور بشكل مميز ولافت.

تلفح وجهي نفحات عطرها الباريسي شانيل.

إنها امرأة في الخمسين من عمرها، ومع ذلك لا تزال غضة وممشوقة القوام. كأنها لا تكبر إطلاقا، أو كلما تتقدم في السن يتفتح جمالها أكثر.

غالبا ما كنت أختلس النظر إليها، خصوصا أثناء ارتشافي كوب الشاي المعشب على شرفة بيتي.

أعرف أنها لم تكثرث لوجودي، فلم تكن بيننا معرفة، ولم يسبق وأن تجرأت وكلمتها.

حركت المفتاح، شغلت محرك السيارة، من خلف زجاج سيارتها
بدت أكثر فتنة.

دقائق معدودة وانطلقت السيارة، تبعها بعيني إلى أن تلاشت.
عديلة المومس تقيم في العمارة المقابلة لمسكني، منحها والي
المدينة الأسبق -قبل عقود- سكنا، كهبة نظير خدماتها في توريط
الفتيات الصغيرات والقاصرات في الدعارة والبغاء. ومعروف أن هذا
الوالي وزع عشرات السكنات على حبيباته وعشيقاته في مختلف
الدوائر؛ كالبوني ولبزالمو على وجه الخصوص. وهو ما يتداوله الناس
هنا سرا وجهرا، في أحاديثهم ومجالسهم المغلقة والمفتوحة، دون
أدنى حرج أو تحفظ.

كما سمعت كذلك من بشير ميزيغاش، الذي يعرف أسرار
وحكايات وحوادث الناس بكل دقائقها وتفصيلها الكبرى والصغرى،
كما يعرف راحة يده؛ أن هذا الوالي يعيش اليوم حياة ضنكة، فقد
تسبب له ارتفاع مفاجئ في ضغط الدم في إصابته بشلل نصفي،
أقعده الفراش مذ سنوات.

و ذات يوم أخرجه ابنه للتفسيح معه، كان الابن يجبر به كرسي
المقعدين المتحرك، بالقرب من ثانوية القديس أوغسطين. بينما كانا
يتبادلان أطراف الحديث، كانت عيناه في ذات الوقت ترقبان المباني
وحركة الناس وملامحهم وسحنتاهم، وفجأة ودون سابق إنذار توقفت
أمامه امرأة طويلة ومكتنزة، ترتدي ملاءة سوداء وعجارا، لا يظهر من
وجهها سوى عينيها الملتمعتين ببريق التحدي، أما الجزء الطفيف
الظاهر من أسفل ساقها فيظهر تلك الحمرة الممزوجة ببياضها الشمعي.
حدّقت فيه مليا، ثم حولت بصرها إلى سترته الزرقاء ذات الماركة
المعروفة. وأردفت قائلة بعد أن ركزت عينيها في حذاءه الأنيق جدا
والنظيف واللامع، والذي يظهر أنه لم يطأ الأرض قط:

- هل عرفتنى يا ...؟

نظر الرجل إلى اليسار مستغرقا في التفكير، ومحاوفا أن يستذكر رابطا ما. وقال مستغربا:

- معذرة يا سيدتي لم أذكرك، خاننتي ذاكرتي.

- أنا والدة سلوى مرابط.

زادت حيرة الرجل وذهوفا، وحاول استقراء واستنتاج ما تفكر فيه تلك المرأة، نظر في وضعية عيونها عله يكشف شيئا ما. ولما عجز أمام عينيها اللتين تتقدان شررا، توجس خيفة مما قد تخفيه خلف ملامحها غير المطمئنة، لذا طلب من ابنه أن يتركه وحده مع تلك المرأة، بعد أن ابتعد ابنه أردف قائلا:

- مرة أخرى، خذلنتي ذاكرتي المثقوبة. فقد مر علي في حياتي أناس كثيرون، ويستحيل علي أن أذكرهم جميعا.

لم تمهله المرأة حتى يكمل كلامه، قاطعته مذكرة:

- ابنتي التي فضضت بكارتها وهي قاصر، لما كنت على رأس الولاية.

دمعت عيناه، ثم أجهش في البكاء؛ بكى الرجل يومها بحرقة شديدة، إلى درجة أنه أصبح في حالة يرثى لها، فظهر كقط يرتجف بطريقة تثير الشفقة بعد أن أخرج من برميل ماء بارد. وجهه تبلل وأنفه تمخط.

انتبه له بعض المارة من الذين كانوا يقطعون ممر الراجلين القريب منه، أو يعبرون على الرصيف الضيق بمحاذاته، لم يأبه لهم، ولا لفضولهم القاتل وتلصصهم المرضي الذي جعلهم يبطئون الخطى، ويدهقون أذانهم في استراق السمع. لأنه كان مصدوما، ومشتتا، ونهبها لكل الهواجس والمخاوف المفزعة التي كانت تتوزعه لحظتها.

لم يخطر على باله ما حدث، كان وقع كلام المرأة عليه كوقع قبلة انفجرت على حين غرة، وسط جمع من الناس، تختلط فيها الأشلاء المتطايرة مع الغبار الكثيف.

حاول عبثا أن يشد على يدها ويقبلها، حررت يدها من قبضته القوية، وسحبتها إليها بغضب. قبل أن يخاطبها مترجيا بصوت كان مختنقا داخل حلقة:

- أرجوك سامحيني، واغفري لي.. أترجاك بكل عزيز عليك.

لم تجبه المرأة على الفور، فقط ثبتت عينيها الجارحتين مرة أخرى فيه، كسهمين حادين مصوبين نحو وجهه المنهك، والذي تقلص بفعل الصدمة، إلى درجة أنه أصبح بحجم برتقالة.

تلا ذلك صمت رهيب وطويل كاد يخنق الرجل ويعصف به.

-

بدا الرجل لحظتها عاجزا ومتهالكا جدا، ووجه مصفر كحبة ليمون، كان منظره يثير شفقة كل من يراه على هكذا حال. وهو لا يلبث وأن يكرر رجاءه على المرأة، بصوت خفيض ومستكين، كأنه يريد أن يخلص رقبتة من حبل المشنقة الملفوف عليها:

- أنت ترين بأمر عينك وضعي، يكفيني ما حل بي.. لقد سددت الفاتورة كاملة، وأكثر. لقد دفعت ثمن أفعالي دون تقسيط. أتوسل لك، اصفح عني. أريد أن أتخفف من ثقل ما أقدمت عليه في الماضي.. أطلب الرحمة والغفران.

مرة أخرى، لم تمهله المرأة مواصلة حديثه. بنبرة متعالية وماكرة خالية من أي شفقة، قاطعته:

- إطلاقا، لن أسامحك ما حييت. وسأبقى أدعو عليك؛ وما حدث لك قليل.. وانتظر، وستعيش لترى الدود ينبجس من لحم فخذيك المتحلل والمتعفن.

لم تضيف أي كلمة أخرى، فقط انصرفت، ثم اختفت. ذابت في زحمة أزقة حي لاكلون، كأن الأرض انفتحت وابتلعته. حاول الرجل أن يعرف أي اتجاه سلكته المرأة المغادرة. لكن عبثا لم يوفق.

لم أكن أتخيل انتقام الحياة بهذه الطريقة البشعة؛ إذ أصبح الناس يجنون محصول تصرفاتهم في الحين، دون أدنى تأجيل أو تأخير. أضحوا يدفعون الثمن في الدنيا قبل الآخرة. لا مجال للتلمص مما جنته أيدينا، أو التهرب من تحمل مسؤولية أفعالنا، أو التظاهر بالنسيان ونكران الحقيقة. الجميع معرض للحساب والجزاء، دون استثناء، مهما كان المنصب الذي تبوأه، أو النفوذ الذي يحظى به، أو السلطة التي بين يديه. إذ ينبغي أن يقف الجميع سواسية، على حد سواء، فوق حبل المواجهة والمكاشفة. الدنيا كالبحر تصفي نفسها بنفسها، لها قانونها الخاص، بالمحصلة كل شيء بقدر ومقدار.

كان هناك شيء ما في داخلي يربطني بعديلة، لا أملك تفسيراً له! لست أدري إن كان هذا الشعور مرده إلى الشفقة، أم أن ثمة أمراً آخر نمى هذا الإحساس الغريب في أعماقي تجاه امرأة لم يتصادف وأن تحدثت معها بكلمة قط.

مرة أخرى لا ألبث وأن أفكر في هذا الأمر، ولا أتوقف عن التساؤل في قرارة نفسي عن مرده.

غالباً ما كنت أرجح تعاطفي وأغلب تضامني المعنوي معها على كل منطقتي آخر. خصوصاً عندما عرفت السبب الذي حملها على التحول إلى ما هي عليه؛ بسبب اعتداءات زوج أمها المتكررة عليها، فقد كان يتحين الفرص كي يعتدي على شرف أنوثتها وينتهك براءتها، في غياب أمها.

عرفت أمها لاحقاً بالأمر، لكنها لم تحرك ساكناً، خشية من تهديد استقرار أسرتها الجديدة، وحفاظاً على بقائها تحت سقف منزل ذلك القدر!

أمها لم تهتم بها، ضحت بها مقابل حياتها مع زوجها.
كيف استطاعت فعل ذلك؟

كأنه لم تكن تحظى بأدنى قيمة أو أهمية مطلقاً في ترتيبات وحسابات أمها.

حينها تضاعفت رغبة عذيلة في أن تنتقم لنفسها، تمكن ذلك القدر من تحويلها إلى وحش له أنياب ومخالب.

أرادت أن تنتقم من كل البنات الصغيرات اللواتي يحظين بكامل الرعاية التي افتقدتها هي في طفولتها المحرومة من حنان ورعاية الأب.

الكبار يتطلقون ويعبثون ولا يهتمون، والصغار دوماً من يدفعون ثمن تهورهم!

غالباً ما تطأهم الأرجل، ولا أحد ينتبه لهم في زحمة الضغوطات وجلبة المشاكل والصراعات التي تعصف بأسرهم.

6

لمحته من بعيد مجتمعا بشلته عند جانب البناية المتواري عن المدخل، زاد ارتياحي وتوجسي من الأمر، حاولت أن أتجنبه، كانت عيناى تترقبانه بحيطه وحذر، وأنا مسرع الخطى صوب مدخل البناية. لا أعرف كيف ظهر أمامي كالشبح، ازداد فزعي وهلعي من الموقف الذي وجدتي فيه.

استجمعت قواي، وركزت بصري على أنفه، بينما لمحته يُتَبَّت ناظره على جبيني بنوع من الغرور والتسلط، ولكي أتحم بالموقف لم أمهله لحظة كي يتجشأ أمامي تهديداته، تقيأت في وجهه الطفولي المقزز كل ما حدث معي طيلة اليوم في بوسطة البريد.

بينما كنت غارقا في الحديث، كان شكري ابن ميلود قرباجة يضع ذقنه على يده، ثم يقوم بفرك مؤخرة رقبتة بين الحين والآخر كي يشعرني بأن حديثي الممل قد أصابه بالضجر. وعند ذلك وعدته أن أنهى الأمر غدا على أقصى تقدير، نظر إلى الأسفل والأعلى برهة زمن حتى بدا لي كأنه مستغرق في التفكير أو يحاول أن يتذكر شيئا ما يريد قوله، ثم أوما برأسه موافقا.

كان يوما طويلا، وشاقا، ومضغوطا جدا إلى درجة أنني نسيت السؤال عن ابني إدريس.

نمت كحثة هامة، إلى غاية ساعات الصباح الأولى حيث عاودتني الكوابيس اللعينة ذاتها، فنهضت مذعورا ومفزوعا، أتصبب عرقا كأنني غمست في حوض ماء بارد.

خرجت من غرفتي صوب الحمام، لم يشعر بي أحد، الجميع كانوا نياما، حتى أنني خرجت من البيت من دون أن أتناول وجبة إفطاري، في العادة كنت أكتفي بكأس حليب ممزوج بالقهوة، وخبز بالمربي والزبدة، وفنجان قهوة أرتشفه على مهل غالبا وحده ونادرا بصحبة سيجارة إذا استجدت ظروف معينة، أو تهيأ لي مزاج ما.

كانت سيارات الأجرة مرصوفة خلف بعضها البعض كسلسلة طويلة، والسكون التام والمطبق يعم المكان، كأن ساكنة البوني كلهم أموات. ركبت السيارة المتوقفة في المقدمة، ومن دون انتظار دفعت للسائق ثمن الأماكن التي مازالت شاغرة، وأشرت له بالانطلاق، شغل محرك السيارة وانطلق متهلل الوجه.

كانت سيارته اللوغان تنهب الطريق الإسفلتي نهبا، وعند أسفل الجسر الكبير الذي شيده شركة إسبانية قبل سنوات والقطرة غير البعيدة عنه والقريبة من سكة القطار في مدخل المدينة، لمحت تدفق جموع اللاجئين الماليين أو النيجيريين، زرافات وأحاد، نساء ورجالا، شيوخا وأطفالا، كأنهم قاصدون الحج، يحملون مصاحف وطاسات بلاستيكية، يطوفون بها، فيما بعد، الأزقة والشوارع والطرق وأمام الجوامع والمرافق، لا تسمع منهم إلا كلمة: «صدقة.. صدقة..».

ما هي إلا دقائق حتى وصلت إلى وسط المدينة. مررت بشارع ابن خلدون ثم انعطفت إلى شارع الأمير عبد القادر، اجتزت البارات القريبة من شارع الثورة، ثم عبرت بمحاذاة غرفة التجارة إلى أن وجدتني أمام مدخل بوسطة السردوك المقابلة للثكنة العسكرية.

صعدت الدرجات مهرولا، ولما دخلت ومن دون أن أمهل نفسي لحظة لاستعادة أنفاسي، أدخلت يدي في جيب سترتي الداخلي،

وأخرجت منه بطاقة التعريف الوطنية الخضراء المطوية بعناية وفي وسطها الشيك، ووضعتها على السطح الرخامي أمام الشباك. منذ أن حصلت عليها قبل سنوات قليلة غلفتها بغلاف شفاف، وبت أتابهى بها، كلما يطلب مني استظهارها. فقد عانيت حتى حصلت على الجنسية، أما ابناي إدريس وسعيد فقد استفادا من الجنسية قبلي بمقتضى التعديل الأخير لقانون الجنسية الجزائرية، وكان ذلك بموجب أنهما من أم جزائرية تتمتع بجنسية أصلية، مع احتفاظهما بالجنسية المغربية التي اكتسبها مني بموجب حق الدم. في حين بقي توأماي زكية وعبد اللطيف من زوجتي بخته على جنسيتهم الأصلية الأولى المغربية التي اكتسبها مني، ولم تتح لهما الظروف ذلك، وحالت تصاريح الدهر وتدابير القدر من دون استفادتهما من ازدواج الجنسية.

كان قبلي في الطابور شخصان فقط، يبدو من مظهرهما أنهما قدما من أجل صرف منحة التقاعد. لذلك لم يستغرق حصولي على المال سوى دقائق معدودة، كانت كافية لأن أخرج من البوسطة دون أن التفت خلفي، سعدت الدرب المرتفع بخفة منقطعة النظير، كنت أحسني لحظتها ويدي تضغط على كومة الأوراق النقدية الخضراء المدسوسة في حيب بنطالي الجيرزي أحلق متخففا من كل الأثقال، سعدت كأنني كنت أقفز وسط أزقة المدينة العتيقة الضيقة بالقرب من الدرب المؤدي صعودا إلى جامع أبي مروان، ثم انحدرت مجددا إلى بطحة سيدي شريط، قاصدا مقهى المنار عند الزاوية الذي كنت أرتاده فيما مضى بانتظام، على الرغم من أن المكان فقد بهجته التي كانت، لكن شيء ما كان يدفعني كلما مررت بالمدينة العتيقة لابلص دارم إلى الجلوس في أحد أركانه.

تناولت كأس الحليب الممزوج بالقهوة وهلالية على عجل، وغادرت المقهى، وذبت في دروب وشوارع المدينة التي امتلأت بحشود الناس الذين يقصدونها كل صباح يوم جديد من كل الجهات القريبة والبعيدة.

في الطريق إلى البيت، ولما كنت في مفترق الطرق، تناهى إلي ما يشبه صوتا خفيضا ينادي باسمي من بعيد، لم أتعرف على صاحبه، التفت ذات اليمين وذات الشمال دون جدوى، لم يقع بصري على شيء ذي بال.

قررت لحظتها مواصلة المسير حتى انتفضت كالممسوس لما خرج لي شكري بجسده الضئيل مرة أخرى من بين البنايات كالشبح الأسود أو ككابوس يظهر في وضوح النهار، كأنه كان يترقبني أو ينتظر قدومي.

اضطرت للتوقف، حاولت أن أهدئ من روعي، حدثت فيه بنظرة صلبة وملتجدة ثم سلمته خمس ورقات خضراء من ورقة الألفي دينار، لم يأبه لنظرتي تلك، وفتح كلتا عينيه على آخرهما وهو غارق في التحديق إلى الأوراق النقدية بين يديه، كان ممسكا بها بكف يده اليسرى وبعدها بسبابة وإبهام يده اليمنى.

في تلك الليلة الطويلة لم يزر النوم جفوني، لم يكن مأتى ذلك إلى الأرق والكوابيس التي اعتادت أن تقض مضجعي، إنما الصراخ المنبعث من ساحة موقف السيارات مقابل البناية التي أقطن فيها. حاولت إغلاق النافذة من دون جدوى، كان الصوت يخترق أذنيّ كطبل، الساعة تشير إلى الثالثة فجرا، وسيل السباب والبذاءات المتصاعدة من أسفل الحي كمعزوفة موسيقية صاخبة وردينة تثير الأعصاب ما زالت متواصلة.

حاولت التناوم بإغماض جفوني، وسد أذنيّ بقطعتي قطن، باءت كل محاولتي بالفشل، ما زال السب والشتم ينفذ إلى غرفتي من دون توقف.

الحكاية وما فيها أن شكري شرب حتى الثمالة، ولما رجع إلى الحي بسيارته الأطوس القديمة، وجد شخصا ركن سيارة تويوتا ياريس سوداء في المكان الذي اعتاد ركن سيارته فيه. أيعقل أنني من دفع له ثمن السهرة والسكرورة في هذه الليلة المشؤومة!

بعد عصر اليوم الموالي صادفت بشير مزيغاش بالقرب من باب العمارة يرغي ويزيد، لما انتبه لوجودي بدأ يلعن ميلود قرباجة الذي أستعجل إعادة الزواج بعد وفاة زوجته، وأهمل تربية ورعاية أبنائه، وغيرها من الحكايات الأخرى التي كان ينسجها بشير من خياله زورا عن الرجل.

لم تمض إلا أيام قليلة، وبينما كنا ما زلنا نستفسر عن غياب ابني إدريس لدى معارفنا، ونبحث عنه في المستشفيات ومختلف الأماكن التي يكون ربما قد قصدها، فليس من عادته الابتعاد عن البيت ومغادرته من دون إشعار أمه على الأقل! حتى اقترب مني بشير مزيغاش، ولما بدأ في الحديث عن شكري ابن ميلود قرباجة، اضطربت وارتبكت وكاد قلبي يتوقف من شدة الرهبة والخوف مما سيتلفظ به.

هل يعقل أن النذل أخبره بقصتي مع عريفة الخياطة؟!

مستحيل..

غير ممكن..

يا إلهي أي ورطة وجدتني فيها.

ما هي إلا هنيهات حتى استرسل بشير في الكلام، بقدر ما شعرت بالحياة تدب من جديد في جسدي المتهالك، بقدر ما انقبض قلبي من الخبر الصادم الذي فجره بشير في وجهي كالقنبلة المتشظية؛ وجدت الشرطة جثة شكري ابن ميلود قرباجة مرمية في الأحراش القريبة من ضفة نهر سبيوس.

بعد أن اختفى عن بيت والده طيلة الثلاثة أيام الماضية، لم تساور ميلود الشكوك بشأن اختفاء ابنه، فمن عادة شكري بين الحين والآخر أن يختفي عن الأنظار ثم يطفو للسطح مرة أخرى، وهكذا دواليك. إلى أن أوقف رجال الشرطة سيارة الأطوس في الحاجز المنسوب بمدخل مدينة سدرارة التي تبعد بأكثر من مئة وعشرين كيلومتر

عن مدينة عنابة، من عادة رجال الشرطة إخضاع بعض السيارات للتفتيش الروتيني، خصوصا تلك التي تحمل على لافتاتها ترقيمات ولايات أخرى.

لما اقترب الشرطي من السائق بعد أن حياه، طلب منه تقديم وثائق السيارة، ارتاب الشرطي من اضطراب السائق وتلعثمه غير المبرر، أمره بالخروج من السيارة والترجل إلى المكتب المتنقل، قبل أن يفتح الشرطي الوثائق التي بين يديه، انتبه لبقع الدم المنتشرة على الدواسة والسجاد.

لم يتطلب الأمر وقتا طويلا حتى انهار رفيق السدّراتي وأُعترف بكل شيء، لكنه ألقى بكل التهم على عاتق شريكه الأخوين مراد كَالَا ووهاب عَجَالَة، ادعى أن مهمته كانت نقل السيارة إلى مدينة بئر العاتر وبيعها هناك.

بينما كان مراد كَالَا مع أبناء الحي، اعتقلته شرطة محافظة البوني، ولما واجهوه باعترافات شريكه رفيق السدّراتي، لم ينكر كل التهم المنسوبة إليه، لكنه برأ أخاه الفار من قبضة العدالة وهاب عَجَالَة، وأدعى أن وهاب كان حاضرا في الواقعة على سبيل المصادفة فقط ولم تكن له أدنى علاقة بالجريمة المرتكبة، لا في التخطيط، ولا في الترصّد، ولا في التنفيذ، لا من بعيد ولا من قريب، معترفا أنه هو من قام بمفرده بقتل شكري ودون مساعدة أي طرف آخر.

اعترف مراد كَالَا للمحققين بأنه كان الصديق المقرب من شكري ابن ميلود قرباجة، فقد تربيا معا، لكن بعد أن ضاقت به السبل في جمع مبلغ المال الذي سيمكنه من الانتقال إلى الضفة الأخرى؛ فقد سبق واتفق مع صاحب مركب في منطقة سيدي سالم على ثمن الهجرة غير الشرعية إلى سردينيا الإيطالية.

لم تتبق له إلا ثمانية أيام تفصله على موعد الرحلة، انعدمت كل السبل المتاحة أمامه في جمع المبلغ المطلوب. وفي ذلك الحين

التقى برفيق السَّدْرَاتِي، وقد أعلمه الأخير أنه سبق وأن اتفق مع صاحب كراج للسيارات المسروقة في مدينة تبسة، عن صفقة شراء سيارة أطوس وعن ثمنها وعن كل الترتيبات الأخرى المتعلقة بالعملية، وقد قدم من سدراتة خصيصا له، لثقتة المطلقة في قدراته ولإدراكه بأنه الوحيد القادر على مساعدته على سرقة سيارة بهكذا موصفات. تهلل وجه مراد كآلا، وانفتحت أمامه على حين غرة كل الأبواب التي كانت موصدة في وجهه من غير أن يحتسب، ولم يُبَدِ أدنى اعتراض على ما جاء في ثنايا كلام رفيق، بل أبدا موافقته وكامل استعداده للتعاون وإنهاء العملية في أقرب الآجال.

في ذلك اليوم جاب مراد كآلا برفيق السَّدْرَاتِي كل مواقف سيارات الكلونديستان في البوني والمناطق القريبة منها، لكن رفيق لم تعجبه كل السيارات التي رآها برفقة مراد، وأبدا تبرمه وانزعاجه وخيبة أمله.

وبينما هما جالسان يرتشفان القهوة ويدخانان الشيشة في مقهى في ساحة البوني المهيئة حديثا كنموذج منسوخ بطريقة مشوهة من ساحة الكور في وسط البوني، حتى ظهر أمامهما فجأة شكري قرباجة، اعتذر عن تلبية دعوة مراد للجلوس إليهما بمبعث أنه مشغول، لبث مجرد هنيهات ثم انصرف. في تلك اللحظة تفرسه رفيق بنظرة جانبية ثم تبعه بعد أن غادر، إذ ذاك شَيَّعَهُ بعينه إلى غاية أن ركب سيارته، وكان لحظتها أشبه بنيوتن لحظة سقوك التفاحة عليه أو بأرخميدس لحظة طفو غائطه في الماء، حتى صرخ في وجه مراد:

- وجدتتها.. وجدتتها.. لقيتها.. هي بالذات.. جات وحدها.. طيلة نصف يوم حفات رجلينا وراها، وها هي جات برجليها لنا.. جات وحدها.

في تلك الأمسية اتصل مراد كالا عارضا مبلغا مهما على شكري، مقابل أخذه على متن سيارته إلى قرية سيدي مبارك في منطقة

الشط التابعة لولاية الطارف، بمبرر أنه سيأتي بأمه من عند أقاربه هناك.

لم يبد شكري أدنى معارضة خصوصا مع المبلغ المهم الذي فتح شهيته للقبول عن طيب خاطر.

في تلك الليلة ركب في سيارة شكري كل من الأخوين مراد كآلا ووهاب عَجَالَة وبصحبتهما رفيق السَدْرَاتِي بحجة أنه ابن خالتهما وسيتركانه هناك في بيت عائلته بسيدي مبارك.

لم يثر الأمر حفيظة شكري ولم يساوره أدنى شك، وهو الحريص دوما والفظن، ومن عاداته الابتعاد والاعتذار عن قبول نقل أي شخص كان بمجرد أن يشعر بعدم الارتياح، أو بأدنى شيء قد يثير رييته وتحفظه!

أما مع هذه الحالة فهو يثق في جيرانه ثقة مطلقة عمياء، وبالذات في صديقه مراد كآلا فقد تربيا ونشأ معا في حي واحد بالبونوي.

أدين الثلاثة بارتكاب الجريمة الشنيعة، وما زال وهاب عَجَالَة حرا طليقا، لم تقبض الشرطة عليه ولم يهتد أحد لمكانه، وبين الحين والآخر كان يتصل بشريحة هاتف مجهولة بعائلته يسأل عن كلبته ليزا، ويحرص على الطلب من إخوته الأقل سنا منه عدم إغفال إطعامها والاهتمام بصحتها ورعايتها. وُجِّل سكان الحي على معرفة بالمكانة الكبيرة التي تحظى بها الكلبة ليزا لدى وهاب عَجَالَة، وقد شاع بينهم أنه كان يسهر على الاهتمام بشؤونها ويبالغ في تدليلها، كأنها عضو من الأسرة. كان لا يدخل عليها بأي شيء، يطعمها قطع اللحم والدجاج وما لذ وطاب، كما كان يرمي لها بالقطط وهي حية، ويستمتع برؤية منظر الكلبة ليزا وهي تمزقها بأنيابها ثم تقضمها وتلتهمها دفعة واحدة.

لم تمض إلا أيام قليلة على بداية التحقيقات، حتى غادرت أسرة قرباجة الشقة في جنح الظلام، هربا من عار ابنيها. ومذ تلك الليلة

والشقة خاوية على عروشها، وبابها مغلق ونوافذها لم تفتح قط ولم تطأها قدم مطلقا، ولم يرغب أحد في ابتياعها من ملاكها، وانعدمت أخبار عائلة قرباجة الكثيرة النسل، واختفى أثرهم كالبخار.

لما سمعت بخبر وفاة شكري وتفاصيل اغتياله المفجعة على يد أقرب أصدقائه وجيرانه، تألمت له كثيرا، ونسيت كل ما بدا منه، وشعرت بأسى شديد في أعماق نفسي لخسارته وموته بتلك الطريقة البشعة، ثم تمنيت في قرارة نفسي لو بقي على قيد الحياة.

في ذات الوقت ودون سابق إنذار اجتاحتني موجة من الوسواس وساورتني شكوك مخيفة بشأن غياب ابني إدريس. كنت لحظتها مشنت البال، وذهني مشغول، إلى أن أطبقت عليّ الظنون وغدوت ضائعا، وتائها، ونهبا للمجهول. ولما تضاعف اضطرابي وتعاضم فزعي اعترتني رعشة غريبة وشبه إغماءة، حتى أحسست بدوار عنيف أخذني كأنني كدت أن أفقد الوعي من شدة ما كان يتهيا لي بأن الأرض تدور بي أو من حولي. جاهدت نفسي إلى أن تماسكت كي لا أسقط من طولي، ثم آثرت أن لا أنتظر لحظة أخرى، وعزمت على أن لا أدخر جهدا إلى أن يظهر خبر عنه.

عصر ذلك اليوم قصدت محافظة شرطة البوني القريبة من الحي الذي أقطن فيه للإبلاغ عن اختفاء ابني إدريس.

II

هذه الحياة التي فقدت إيقاعها

« طعم الملح يسافر أيضاً على لساني ».

رابع بلعمري (1946-1995).

حي الخرازين الذي كان يعج بالناس، ولا تتوقف الحركة فيه، كان يبدو مثل القلب النابض بالحياة، فهو يوجد وسط المدينة العتيقة. ما أن نقترب من المعالم المحيط به إلا وتلفحنا روائح متميزة، لا نلبث وأن نتوقف عن الحركة والالتفات، كنا نُحلق على جناحي الطفولة والخيال، كانت مشاهد ساحرة؛ منظر دار الدباغة، والسوق الفوقي، والغرسة الكبيرة، والصباغون، والنجارون، والعطارون.

الأزقة المؤدية إلى حي الخرازين كنا نجتازها على سهوة المتعة والمرح الطفولي، كانت مكتظة بالباعة، سواء من ناحية الغرسة الكبيرة أو من جهة السوق الفوقي. كانت تبدو لنا مثل متاهة تحيط بها أبواب عدة. وكانت تغرينا تلك المتاهة بأبوابها المتفرقة، فمن باب العقلة، أو باب الجياف، أو باب النوادر، أو باب الرموز، أو باب الصعيدة، كنا نلج المواقع القريبة من حي الخرازين في المدينة العتيقة.

كانت أيامنا كلها جميلة وملونة بالدهشة والفرح. كنا نتقافز ونجري ونتسكع في تلك الفضاءات الحرة، غير أبهين بما تخبئه لنا الأيام القادمة.

لم نكن نفكر بالمستقبل، جل ما كان يعيننا آنذاك هو أن نعيش اللحظة بكامل تفاصيلها. كانت رؤيتنا للعالم الخارجي تبدأ من نظرة أعيننا المغتبطة للمنتوجات الحرفية اليدوية، وهي مُعلقة أو معروضة

في الدكاكين والمحلات الصغيرة المنتشرة هنا وهناك، تلك العين المشعشة لرؤية الأحذية والبلاغي والحقائب الجلدية، والملابس التقليدية، كالقفاطن والجلابيات المطرزة.

لا أزال أذكر تلك الأزقة والدروب والأبواب السبعة، كما أذكر البحر الذي يحيط بالمدينة، بمزيج من البهجة والحنين لتلك الأمكنة التي نشأت فيها، والتي صورها ولامحها بقيت طاغية بشكل صارخ في ذاكرتي عن مدينة تطوان، المدينة التي ما زالت آنذاك تحت الوصاية الإسبانية.

الأحياء الشعبية في تطوان كانت مرتعا للسكري والحشاشين، وكنت كلما مررت بطريق ثانوي لم آلف المسير بها، كان يتملكني الفزع ويستبد بي الخوف، ولكنني أوصل المشي مكرها، كاتما مخاوفي متظاهرا بأن لا شيء غير عادي.

لا يمر يوم دون أن ترى مشاهد العراك وتصفية الحسابات، فكثيرا ما سمعت عن قصص الانتقامات والتعدي والسرقة، خصوصا تلك التي كان يرويها لنا صديقي الأمين حمودان الإدريسي على أنه رآها بأمر عينيه.

أذكر أنني في مراهقتي عملت عتالا في السوق، وغالبا ما كنت لا أبرح طويلا في مكان واحد للعمل. فقد كنت كثير التنقل والترحال من مكان لآخر؛ فحالما أحس بتهديد قريب أو أستشعر أذى بعيدا، أو يعتدي علي من يكبرونني سنا، وهي حوادث متكررة كانت تقع لي باستمرار، كنت أهرج المكان ولا ألوي خلفي.

دائما ما كنت في حالة ترقب وبحث متواصل لتسخير خدماتي للأسر الإسبانية، على الأقل ما أجنبيته وأحصله من تلبية حاجاتهم ومتطلباتهم على ضالته، كان سيقيني من مغبة الشرور والنوائب المحتملة التي قد ألقاها في عمل آخر.

مع مرور الوقت، رويدا رويدا، بدأت أدرك ثقل الحياة، والمأساة التي وجدتها فيها. من الفاقة وشدة الفقر، وقذارة البيئة التي كنت

أقطن فيها، بدأت أسلي نفسي بتدخين السجائر، كما تعلمت تدخين الكيف سرا كي لا يكشفني أحد. بهذه الطريقة كنت أعتقد أنني أنتقم من واقعي البائس. ومن الكيف انتقلت إلى شرب الخمرة.

أتذكر أول مرة حاولت فيها أن أسكر، لم أتوقف عن تحشؤ مرارة المشروب، ثم تقيأت على ملابسني، وثملت إلى درجة أنني لم أستطع الوقوف، فبقيت مرميا على قارعة الطريق طيلة ساعات، إلى أن عثر علي بعض جيراننا فجرا على سبيل الصدفة، حملوني إلى أقرب مقهى مفتوح، ثم أشربوني قدحي قهوة مرّة، ولما استفتقت، أفرغوا على رأسي دلو ماء بارد، ثم أسندوني إلى غاية البيت، طرقت الباب بعض الطرقات، وتركوني أمامه على تلك الحالة.

لما كنت أثل في المقهى كانت تتعالى صيحات وتصفيقات رواده، كانت نشوتي تتضاعف عندما يصل إلى مسامعي تشجيع جل الحضور وصخبهم المتعالي، خصوصا من ضرب الطاولات بأيديهم وتحريك الكراسي. فقد كانت تستهويهم حركاتي وحكاياتي عندما تلعب الخمرة برأسي. وكنت أمتثل لطلباتهم وأدعن لرغباتهم تحت إلحاحهم المفرط، فما علي إلى أن أستجيب لهم.

كلما كنت أغرق في الشرب وأفرط في الكلام الأقرب كثيرا من الهذيان والأبعد قليلا عن الهذر، كنت أحسني أستحيل إلى إنسان آخر، لا يشبهني، إنسان مختلف تماما عن الصورة النمطية التي يراني بها من هم حولي، والتي طبعتها نشأتي وكل الظروف المحيطة بها في ذاكرتي، أجدني أكثر وضوحا وشفافية وصدقا مع ذاتي، أقرب إلى الفطرة التي فطر الناس عليها.

في الحقيقة لما أستفيض في الحديث وأمعن في سرد تفاصيل وجزيئات حميمة عن جل ما يمور في داخلي دون لف أو دوران أو تورية، كنت أنخف بشكل غير متوقع، ثم أدخل بعدها في نوبة ضحك تكاد لا تنتهي، أو تعتريني حالة من البكاء بحرقة لا نظير لها.

حالما أتوقف عن الضحك أو حينما أمسح دموعي من البكاء أشعر كم هذه الحياة سخيفة وأحطُّ أو أضالُّ من جناح بعوضة. هذه الحياة التي أثقلت كاهلي طيلة وقت صحوي.

كان هناك شخص واحد فقط يعترض على سلوكي. مع مرور الوقت أدركت أن مصلحتي تهمه، خصوصا عندما أنقذني من بين فكي أربعة رجال شداد، أسقطوني أرضا، ثم نزعوا حزامي الجلدي، وبعدها بدأوا في فتح أزرار سروالي. لم أصدق أنني سأنجو وأن القدر سيسخر لي منقذا، كان جمعا في مفرد، كان أقوى منهم.

لم أقو على النهوض من شدة الصدمة، مد لي يده وجذبني إلى الأعلى، وقفت على رجلي بصعوبة بالغة.

من هنا تعرفت على مخلوف الصبايحي، ونشأت بيننا صداقة متينة على الرغم من فارق السن الكبير بيننا. بات ما قام به كدين على رقبتي، لن أنساه ما حييت.

لا زلت أتذكر كيف كنت أختلق الذرائع وأضع الأعذار تباعا كي لا أذهب إلى المدرسة، معظم تلك الحيل الملققة التي ابتدعتها من خيالي الخالص أو التي هي من بنات أفكار صديقي الأمين حمودان الإدريسي ومحمد لمبريطو لم تصمد طويلا، وسرعان ما تتساقط أمام زجر أمي وتأنيتها الواحدة تلو الأخرى كأوراق الخريف الميتة.

قد تكون أمي متسامحة معي في أي شيء آخر عدا الدراسة، فقد كانت صارمة ولا تقبل أي عذر، لما كبرت أدركت مبعث حرصها وحنة مبالغتها على تعليمي؛ فأنا الابن الذي خرجت به من الدنيا عقب وفاة خمسة إخوة قبلي في بطنها أو لحظة ميلادهم أو في المهده. فقد مرت عدة سنوات على زواجها بأبي ولم يرزقهما الله خلالها بأبناء.

لم يترك طبيبا أو عرافا أو مداويا بالأعشاب إلا وقصدها، كما حكت لي جدتي عن المرات التي اصطحبت فيها أمي إلى زيارة الأولياء الصالحين والمقامات والزوايا، لكن كل تلك الجهود لم تأت أكلها، إلى غاية أن رأت جدتي الزهرة بندريس في المنام أمي تلد صبيا اسمه عبد القادر، وفي الفجر قَصَّت رؤيتها على أبي، وما هي إلا أسابيع معدودة حتى حملت بي أمي في بطنها، وكنت أنا عبد القادر كما شاءت الأقدار الإلهية.

أمي التي تزوجت أبي وهي طفلة صغيرة في الثالثة عشرة، لا تعي أي شيء. ما زالت حينذاك تلعب مع أترابها. ولما انتقلت للعيش مع أبي في غرفة صغيرة، وجدت في جدتي الزهرة حزن أمها المتوفاة، التي ما زالت نار فقدانها مشتعلة في فؤادها. أخذت جدتي بيدها، وأعانتها على تعلم الأعمال المنزلية والواجبات الزوجية، كما تعتني الأم بابنتها.

لا يعني بالنسبة لي كشف مخططاتي الطفولية الاستسلام الكلي، فقد تعودت أن لا أرفع الراية البيضاء مهما كانت المشطات التي أجدها في طريقي.

لما أفضل في مساعي كنت أتظاهر بالخضوع والامتثال لقرارات أمي، ولأن موقع المدرسة كان في مكان يبعد عن الحي الذي أقيم فيه بخمس وثلاثين دقيقة، الأمر الذي أتاح لي فرصة التحرر من عيون جل الجيران، ومن معارف وأصدقاء أبي على وجه الخصوص، وفتح لي هامشا رحبا للمغامرة والاكتشاف.

ما إن أخرج من البيت وأدخل إلى الأزقة المتتابعة التي تفضي بدورها إلى السوق، حتى أجد الباعة المتجولين وأصحاب العربات على أهبة الاستعداد لبدء يومهم الجديد. لا زال صوت باعة الخضر والفواكه وهم ينادون المشترين ويرطنون بالإسبانية كل صباح يطن في أذناي، كأنني أسمع اليوم. فضلا عن اللهجة المغربية التي تشربتها في مناخ العائلة ومحيط الجيران، كنت قد تعلمت التحدث باللغة الإسبانية في مرحلة مبكرة جدا، قبل حتى دخولي إلى المدرسة وتعلمي العربية الفصيحة.

أما عقب تعرفي على عائلة السيد مانويل بيرتوشي، فقد تحسن مستواي في اللغة بدرجة لافتة جدا، استغرب لها صديقاى المقربان. طبعاً الفضل الكبير يرجع للسيدة ناتاليا بيرتوشي، فقد كانت، والحق يقال، امرأة كريمة على درجة عالية من الجمال الآسر الممزوج

برقة عذبة. لما كنت أسلمها الأغراض التي طلبها مني السيد بروتوشي، كانت تدعوني للدخول إلى البيت بابتسامتها المطبوعة على شفرتها، تلك الابتسامة التي لم تفارقها قط مذ عرفتها.

تأمرني أن أجلس على كرسي من بين مجموع الكراسي الملتفة حول طاولة من خشب الأكاجو المنتصب في ردهة البيت والقريبة من الدرج. لما جلست على الكرسي الضخم أول مرة، اندهشت من هذا البيت الفسيح ومن دقة تنسيقه ومقتنياته الثمينة الموزعة هنا وهناك. مباشرة عندما رفعت رأسي انتبهت للبيانو الهائل عند الزاوية تعلوه لوحتان عظيمتان معلقتان على الجدار.

كانت تتكلم بلطفها المعهود وتتحرك من حين لآخر، وكنت أرقبها بطرف بصري في كل خطوة تخطوها بخفة أو في هيئتها واعتبارها، كانت تظهر لي كالفراشة في رشاقتها وبهاء ألوانها، فقد كنت إزاء امرأة من طينة أخرى. كانت تحب العزف على البيانو، وكنت أطرب بسماع نوتات المقاطع الموسيقية التي ترسمها أصابعها البيضاء الطويلة على لوحة المفاتيح كأميرة قفزت فجأة من بين أسطر قصص وحكايات الأطفال، ولما كانت تغمض عينيها تعبيراً عن ولوجها إلى ذروة الانتشاء، كانت تستحيل إلى ملاك جميل، خصوصاً مع هالة النور التي تعتري وجهها لحظتها. مباشرة لما تفرغ أصفق لها بشدة، واعر لها عن امتناني ومدى سعادتي بسماع هذا اللحن المتناغم والنغمات الممزوجة بروحها النقية، فكلما كانت تتعالى نوتاتها الموسيقية التي تكسر صمت هذا الكون الصلد، رُحت أتأمل يديها الممدودتين فوق البيانو وظلّ وجهها المنعكس وأنا غارق في سفر باطني عميق، حتى وجدنتي أمسح دمعة تسلفت فجأة من عيني.

سبق وأن أخبرتها أن العزف على البيانو يشبه كثيراً العزف على آلة القانون، إلا أنها أبدت موافقتها بحركة من رأسها، وراحت تحدثني بإسهاب عن تاريخ الموسيقى الغربية وامتزاجها بالموسيقى العربية في بعض فترات التاريخ، كما أفاضت في الحديث عن ريادة الموسيقى

الأندلسية في إسبانيا. وأنا أسيخ السمع، ومن شدة انبهارى بثقافتها الواسعة وسعة اطلاعها كنت خاضعا لسحر كلماتها وثرء معرفتها، فقد كنت جامدا في مكاني لا أحرك ساكنا كأن على رأسي الطير.

كان بيننا اتفاق، في الحقيقة هي صاحبة الاقتراح والمبادرة؛ أن أعلمها التكلم بالعربية المحكية وتعلمني قواعد كتابة اللغة الإسبانية. ما كان علي سوى أن أستجيب لطلبها، فامرأة بمثل طبيعتها لا يرفض لها طلب.

آخر مرة رأيت فيها السيدة بيرتوشي، كانت واقفة على شرفة بيتها ووجهها مصوب تجاه المدينة، تأملتها طويلا وهي دامعة العينين، حتى أنها لم تتبه لوجودي في البداية قبل أن تسحبني إليها بحنو جم، احتضنتني بشدة ثم قبلتني.

أحسست من تنهداتها وشهقاتها المنتفضة أن الحزن يعتصر قلبها، وأنها أشبه بالطير الذبيح لحظة انتفاضة جسمه الصغير. حاولت التفكير في مبعث هذا الألم المستتر والعام الذي فاض من أعماقها، عبثا لم أعثر على العلة الموجبة له.

كان صوت منبه السيارة الذي تعالي من الأسفل مدعاة لمغادرتي. لما كنت على أهبة الوصول إلى باب الخروج، انتبهت لثلاث حقائب سفر سوداء اللون توسطت الردهة، وعقب تجاوزي البوابة صادفت السائق يقف في استعداد تام أمام سيارته السوداء ذات الطراز المنتشر آنذاك حصرا بين العائلات التي لها نفوذ مالي واجتماعي، بدا لي انه لم يتجاوز الخمسين من عمره بعد، يرتدي بذلة داكنة اللون، مع قميص أبيض، ملامحه صارمة، ووجه مسمر في اتجاه واحد، فقط عينان تمسحان المكان جيئة وذهابا.

في الأيام والأشهر القليلة الموالية ترددت على منزل السيد بيرتوشي أكثر من مرة، علني أعثر عليهما. لكن خاب مسعاي ذاك، فقد أقامت بالبيت بعد أشهر عائلة إسبانية جديدة، ومذ ذلك اليوم

أضحيت من حين لآخر أفف لحظات بالقرب من البيت المقابل لبيت السيد بيرتوشي، كنت أتأمل وأنتظر أن أرى السيدة بيرتوشي تلوح لي بيدها من الشرفة أو تفتح لي الباب وهي باسمه كسابق عهدها. وقد علمت لاحقاً من الفتى الإسباني ماريانو باكرو الذي أقامت عائلته في بيت السيد بيرتوشي، والذي نشأت بيني وبينه صداقة قوية فيما بعد، من كثرة ترددي على الحي. أن السيدة ناتاليا بيرتوشي انتحرت في مدينة توليدو بعد سنوات من مغادرتها تطوان، وقد أخبرني أن الباعث الذي أفضى إلى قرار الانتحار حدث عندما اكتشفت خيانة زوجها لها مع خالتها الصغرى ليا.

فبعد حب عاصف بينهما و حياة سعيدة دامت لسنوات إقامتهما بين إسبانيا والمغرب، عرفت تلك المرأة الهادئة والجميلة اضطرابات نفسية عسيرة على العلاج دفعتها للاكتئاب واختيار الانتحار. على الرغم من أنها خضعت لعلاجات نفسية مكثفة في مشافي متعددة بعد نجاحها مرات عديدة من محاولاتها الأولى للانتحار، إلا أنها لم تنفك على معاودة المحاولة. إلى أن ماتت منتحرة ذات صيف بالغاز المتسرب من فرن مطبخها، مخلفة توأمين، طفلاً وطفلة يشبهانها إلى حد التطابق، نامت نومتها الأبدية تاركة طفليها نائمين في الغرفة الملاصقة للمطبخ.

كان الذهاب إلى المدرسة كل يوم صباحاً مدعاة لنفوري وتبرمي، لذلك تجدني معظم الأوقات لا أبرح هناك إلا وقتاً ضئيلاً ثم أنفذ خارج أسوار المدرسة حراً طليقاً. أقضي جل وقتي في التسكع، لا زلت أتذكر جيداً وقع خطواتي على السباطات والممرات المسقوفة وأنا اعبر من حي لآخر، لا زال منظر الأقواس أيضاً جاثماً في مخيلتي. أتذكر صرير الأبواب والبيوت التي أمر بمحاذاتها.

بعد قطعي عشرات الأمتار، أحسست بالمحفظة الثقيلة التي كنت أحملها بيدي، أتوقف عن المشي بعض الوقت كي أريح كف يدي المحمر والمتورم، وأستعيد أنفاسي؛ ألقى بنظري على البيوت

التي كانت تمتد أمامي، انتبهت إلى أبوابها العالية والعريضة، ما لفت انتباهي أكثر هو طريقة تصفيف مسامير بوقبة نصف الكروية ذات القطر المتوسط على واجهة تلك الأبواب، على شكل خطوط رأسية وأفقية، الأمر الذي ضاعف من دهشتي تلك الدقاقة الحديدية المقببة، والتي لها أشكال هندسية رائعة تنتهي أطرافها المثلثة على صورة شعاع.

عاودت المشي بخطى منتظمة، أتفرس في ملامح وقسمات الغادين والرائحين في أزقة تطوان العتيقة، كما أسترجع رهبة أسوارها العالية، والعلامات والحكايات والقصص الخيالية والخرافية التي كانت تقصها عليّ جدتي الزهرة بندريس؛ عن فضل سيدي الغرناطي علي المنظري الذي أعاد بناء تطوان بعد أن خربها البرتغاليون المحتلون لمدينة سبتة وبقيت خالية حوالي نصف قرن، وهو القادم من غرناطة، وعن خروج آلاف المسلمين واليهود من الأندلس ليستقروا في تطوان.

كلما كنت أقف أمام جدرانها، وقصبتها، وأبراجها، وقصورها، وأضرحتها، وفنادقها القديمة، وصوامعها، ونفوراتها، وحدائقها؛ أتذكر جدتي الزهرة بمنديل أتازير المخطط باللونين الأحمر والأبيض، وهي تعتمر الشاشية، والفوطة البيضاء دوما موضوعة بعناية على كتفيها، ويظهر حزام الكرزية الذي ربطت به المنديل الملون جليا.

بالقرب من دار بن مرزوق ذات الطراز الأندلسي والشامي، تمنيت في قرارة نفسي أن أحظى ببيت جميل ومكتمل الأركان، يماثله. لكن أنى لي ذلك حينها، ويدي قصيرة وناصرى قليل. وبعد عشرات الأمتار انعطفت صوب اليمين كي أجد نفسي في الحي الذي تقع فيه دار بريشة، كنت لحظتها أتمهل الخطو واختال في مشيتي، وعيناي مثبتتان على جدرانها ونوافذها وبوابتها الفريدة من نوعها. تخريني فكرة الوقوف بمحاذاتها والمكوث بعض الوقت بقصد التأمل والانتظار، عل ليلى حمودان الإدريسي تعبر هذا الحي.

لم انتبه لمرور الوقت، الساعة الآن تشير إلى الثالثة والرابع. وكنت أتقدم وعيناي تحدقان في المباني والأبواب التي أمر بالقرب منها، ألاحظ في بعض الأحيان رمزًا حديدًا على شكل رمانة مثبتًا على أعلى الأبواب، كما هناك من استعمل شكلا يشبه حدوة الفرس، أو رمزا شبيها بالخمسة أو يد فاطمة كما تسميها جدتي الزهرة، التي سبق وأخبرتني أن هذا الرمز يرجع للعائلات الجزائرية التي هاجرت إلى تطوان.

لم يسلبني أي شيء آخر بقدر ما سلبتني تطوان العتيقة بتقسيماتها وأزقتها ومنعرجاتها، وبياض مبانيها وأسوارها وقصبتها ومعمارها الأندلسي العريق. كنت أراها كحمامة بيضاء خلقت من عاج.

كان علي أن أترك المدرسة من أجل كسب المال، لم يكن أمامي المزيد من الخيارات الأخرى، كنت مضطرا، ولم يكن بمقدور عائلتي تحمل عبء وتكاليف الدراسة، خصوصا أمام تَعَوُّل عمي مصطفى وضعف حيلة أبي. لم أكن لأرضى بحياة الفاقة والذل، وأنا أراها تحوطنا من كل جانب، ونحن قاب قوسين أو أدنى من الغرق.

في حقيقة الأمر لم يكن اضطراري بمثابة إكراه يثقل كاهلي، فقد استحسننت في قرارة نفسي فكرة مغادرة مقاعد الدراسة، والتحرر من الواجبات والتمارين المزعجة التي كانت تقض مضجعي، والتخلص نهائيا من توبيخات المعلمين المتكررة وبالخصوص من عقوبات مدير المدرسة الأصلع والأرعن؛ فالتعثرت في بركة وحل أهون من تحمل بصاقه العفن المتناثر من فمه أثناء الكلام والصراخ في وجوهنا، فقد كان فمه أشبه ببالوعة مياه الصرف الصحي القذرة.

لاحقا ومع مرور الزمن ترسخت في الذاكرة أشياء لا يمكن نسيانها؛ ذكريات أيام المدرسة الجميلة والمؤلمة، حفرت في داخلي أحاديث عميقة وغير مرئية كانت تتدفق منها البهجة والنور إلى روحي كلما أحسست بالسأم من تكاليف الحياة وأعبائها ومن جهامة صروف الدهر وعمتة الشقاء.

أحيانا كنت أتوقف عن العمل، ولا أجد ما يسد رمقي. مدعاة القرار ليست رغبة مني؛ فبعد أن ينتهي بي الأمر مطرودا إما بحجة عراك أو مشادات عنيفة وقعت بيني وبين من يعملون معي، غالبا ما

كنت أنا الضحية في المسألة. أو بعلة رفضي الخضوع لوقاحة وفحش رب عملي، فهناك علل وأمراض في نفوس وميول الناس ما أتى الله بها من سلطان.

فبعد كل ذلك أجدني أعزل أصارع كل المتضادات وسط الرياح والعواصف التي تهب وتعصف من كل الجهات، وليست لدي أدنى فكرة عن مصيري أو ما سيحل بي، خصوصا وأني غالبا ما أكون بعيدا عن عائلتي خارج تطوان، فقد يحدث وأن أجوب أماكن ومدنا متفرقة بحثا عن مصدر الرزق.

قد تكون في جيبى دراهم معدودات، أو قد أكون خالي الوفاض أو أنّ النزر القليل الذي تبقى معي من المال لا يوفر لي المأوى ولا يسكت جوع بطني.

خبرت حياة الضياع، والنوم في الخلاء وفي الشطآن وتحت الأشجار وأسفل القناطر وفوق الصخور وبين الوديان، فكنت أغفو وأنهض على وقع زمهرير البرد ورطوبة الصقيع في الثلث الأخير من الليل اللذين يوقضان مضجعي لما يتسللان من تحت أو من فوق البطانية أو اللحاف أو الأسمال البالية التي أدثرها إلى جسدي الهزيل ومنه يخترقان عظامي الهشة.

أكلت من بقايا فضلات الأسواق، ومن القمامة التي يرميها الناس في الزباله، وتعاركت مع المتشردين واللثام من أجل اللقمة، كما تقاسمت الطعام العفن مع المتسولين.

همت في أرض الله الواسعة، حتى ضاقت بي المساجد والمرافئ، فكنت أطرده من المساجد التي احتمي بها من قَر الشتاء وحر الصيف، وأتعرض للقلع من المرافئ التي كنت أقصدها بحثا عن مصدر رزق وعمل شريف.

من شظف العيش أصبحت أكثر بأس وخشونة، ونما جسدي وأضحى شديدا وصلبا، وبتُّ أكثر جلدا وتحملا. كما أن ضيق الأفق وغموض الرؤية تجاه المستقبل الذي بات بالنسبة لي من سابع

المستحيلات، وثقل وطأة المحن التي نحرنتي كالسهم الحادة وجعلتني أنزف من كل الجهات، جعلاني أسرف أكثر في اللهو وأفرط في إشباع شهواتي وأغرق في حياة جلهما رذائل وخطايا، ضاربا كل شيء عرض الحائط، لا شيء يستحق، فالدنيا بنت كلب لا تأبه لك عندما تسعى وراءها، ولا تلتفت إليك لما تحفى قدماك من الجري خلفها، ولما تدير لها ظهرك وتصرف نظرك عنها تأتيك صاغرة ذليلة راكعة تحت قدميك!

ودوما ما كنت أتجادل مع الأمين حمودان الإدريسي بخصوص هذا الشأن، ولا زلت أتذكر بكثير من الحسرة ما كان يدور بيننا من نقاش والذي يتحول إلى صراخ في غالب الأحيان، ثم يتطور في بعض الأوقات إلى خصام قد لا يطول أمده بيننا، لأننا سريعا ما كنا نحس بالفجوة التي يخلفها هذا الجفاء، وكلانا لا يطيق الابتعاد عن الآخر ولا يرضى بالتناهي، لأن ما بيننا من صداقة لا يمكن وأن تذروه خلافات عابرة وخصومات تافهة. أتذكر المشهد بصورة وما دار فيه من حوارات كأنما الأمر قد حدث من يوم أو يومين:

كان الأمين يخفض بصره إلى الأرض وهو يحاول أن يظهر ثقته بنفسه وفي الكلمات التي كان يتفوه بها، على الرغم من أنه يعرف مدى عنادي وعلى دراية بمراسي الصعب:

- الدنيا مزيانة يا عبد القادر بركاك ما تغرق في النظرة الخائية.
بيد أنني كنت أرمي ببصري إلى أبعد نقطة تتراءى لي في الأفق، أو كما يُخَيَّل لي. غير مبال بمن يتلصصون على جلستنا، محاولين استراق السمع بفضاظة مبالغ فيها بشكل زائد. ثم أرد بصوت خفيض ممزوج بالثقة المفرطة ومليء بمنسوب فائض من الإحباط من حال البلد والعباد على حد سواء:

- قليل ألي غادي يفهم الأمل ديالي! في هذا البلاد ما نقدر نعمل حتى شي حاجة.

تلا ذلك لحظة صمت بيننا، صمت ثقيل ومزعج. ثم سدد إلي نظرة غاضبة، وقال بكل حزم وصرامة:

- لازمك تكافح بشي حال كل الناس لي عايشين على هذي الأرض. في الحقيقة لم أستطع أن أخفي غيظي ويأسي من كل شيء، على الرغم من أنني حاولت أن أتحاشى الرد. نظرت إليه بحزم ثم حاولت مرة أخرى أن أرد بلطف كي لا أغضبه، ولكن كنت أرغب في ذات الوقت في أن أخرج جل ما كان يختلج في صدري لحظتها دفعة واحدة:

- ما نكدبش عليك يا الأمين، ما كانش الخدمة؟ ما قدرتش نعيش في تطوان وفي المملكة بكمالها.

بيد أنه انبرى يبرر الواقع بحجج واهية وغير منطقية، فراح يتحدث بشكل مثالي لا يلامس الواقع المعيش كأنه قادم من عالم آخر:

- يخصنا نفكرو في راسنا على شي حاجة تدخل الفلوس، ونعملوها.

هذه المرة انبريت مجددا في وصف الحال كما هو عليه دون تزييف أو تجميل، عله يقتنع ويثوب لرشده:

- خاصك مبلغ كبير! مشاكل بزاف. نخمم بزاف. دابة منين رجعت عيبت نشوف في شي حل آخر.

لما كنت أتكلم انتهت أنه كان يقوم بشبك أصابع يديه، ثم ثنأهما إلى الخلف تلقائيا وصدرت من تلك الحركة صوت طقطقة الأصابع. لا أدري إن كان يصغي إلي أم لا؟ إلى أن قاطعني:

- ما فيها حتى شي مشاكل، بركاك يا عبد القادر ما تركز على النظرة الخايبة.

لم أتمالك نفسي؛ أردفت قائلا دون انتظاره حتى يكمل كلامه:

- ما قدرتش يا الأمين، ما قدرتش. ما نكذبش عليك.

خلد للصمت، وغادرني غاضبا كعادته دوما.

أما أنا فقد قصدت أقرب بار، جلست على كرسي في الطاولة التي في الشرفة، دخنت سيجارة غير محشوة وطلبت قنينة بييرة باردة. من بعيد انتبهت للنادل يحمل صينية نحاسية بأناة، كأنه خائف أن تنفرط سبحة القنينات المتراصة والمتلاصقة ببعضها البعض.

عببت القنينة المثلجة دفعة واحدة، لم ترق لي، لذلك أشرت على النادل أن يجلب لي كأس وسكي. كان هناك عند الدرازين الحديدي رجل ستيني يترنح وبالكاد يقف بثبات، يظهر أنه سكر حتى الثمالة. لم يتوقف عن الهذر والهذيان، طاف بكل الطاولات كالمعتوه. أكملت كأسِي، دفعت الحساب وانصرفت.

اجتزت مجموعة غير منتهية من الأزقة الضيقة، كأنها تتناسل وتتوالد من بعضها البعض بشكل خرافي، كما عبرت الأحياء السفلية المظلمة دون رهبة على خلاف العادة. تسكعت حتى بلغت طريقاً ترابية أفضت بي إلى مقهى شعبي كان أشبه بدكان صغير، لكنه مليء ومنتعش بالرواد على ضيق مساحته.

وجدت كرسيًا فارغًا فجلست، انتبهت إلى مجموعة من الكهول والشباب علا صخبهم بسبب القمار بلعبة «البارتشييس»، أحدثوا جلبه كبيرة بسبب ضرب النرد على الطاولة.

أما أنا فكنت أحمل السبسي وأدخن الكيف فيه، غير مبال بما كان يدور بينهم من حديث، كنت أدخن واستمتع بالطرب الأندلسي. والطاولات من حولي لها أربعة مداخل، تم تخصيصها لأربعة لاعبين، وهناك طاولات يشارك في اللعبة حوالي ثمانية لاعبين.

من بين الحضور، لفت انتباهي شاب أجنبي قوي البنية يرتدي قميصًا فضفاضًا طبعت عليه رسوم متداخلة بألوان شتى، وأزراره الثلاثة مفتوحة من الأعلى على صدره البارز، يظهر عليه وشم يغطي

ذراعيه والجزء المكشوف من ظهره، يبدو أن الوشم يمتد إلى أسفل ظهره. تلتصق به فتاة لون بشرتها البرونزية يلمع مع انعكاس نور اللمبة المتدلية بسلك طويل من الأعلى، كان الأزرق الليلي عليها ساحرا جدا من خلال التنورة الطويلة التي كانت ترتديها.

ضحكتها العفوية من حين لآخر كانت تأسر كل من هم حول الطاولة، حتى أن الكثير من العيون الأخرى في الطاولات القريبة كانت ترمقها بكثير من الحسرة.

كان الشاب الأجنبي يلعب بشراهة وفي يده لفافة كيف، يبدو أنه خسر كل ماله في القمار، حتى اضطر إلى نزع الساعة الذهبية اللون من معصمه الأيسر وأفتك الخواتم الثلاثة من بين أصابع صديقتة بحركة سريعة وفضة، ووضع كل شيء على الطاولة مراهنا على الكسب.

توالت خساراته مع مرور الوقت حتى لم يجد ما يقامر به، فجأة ودون سابق إنذار، رفع يد صديقتة من على منكبيه وسحبها برفق إلى أمام الطاولة، طالبا من ندمائه مواصلة اللعب، وأعلن أمام الملاء أنه سيراهن على صديقتة في القمار.

المسكينة على الرغم من أن عينيها الزرقاوين مثقلتان من تدخين الحشيشة، امتقع وجهها وفتحت ثغرها من شدة الذعر!

حاولت أن تشنيه على ما ذهب إليه من قرار متهور، لكن بآت كل محاولاتها بالفشل ولم يشفع لها رجاؤها عنده واستجداؤها له. واصل في عبثه واستهتاره غير مبال، إلى أن خسرها على طاولة القمار.

نهض الرجل البدين الذي كان يجلس قبالة عينيه ترقصان فرحا، كان يتلمظ ولعابه يسيل بشكل مقرف ومقزز وهو يقترب منها والمسكينة تتراجع إلى الخلف ويبدو من شدة فرعها واصفرار وجهها أنها لم تكن مصدقة ما حلَّ بها الليلة وأي بلاء كان ينتظرها، حتى تعثرت برجل الكرسي وسقطت على قفاها.

ارتفع قماش التنورة الخفيف وظهر جزء من فنتتها، لا أحد ممن كان في المقهى رأف لحالها، بقدر ما جعلهم فضولهم الغريزي منهمكين في النظر إلى ذلك الجزء المكشوف من جسدها، وانتظار ما ستسفر عنه نهاية حكايتها مع ذلك الرجل المسخ الذي كان يلاحقها. لم أحتمل الموقف وهالني المشهد حتى وجدتني أتحمس جيب سروالي، ثم سحبت يدي طابقا على كفي على شكل قبضة، واتجهت صوب تلك الطاولة المنصوبة وسط الدكان، ضربت على سطح الطاولة حتى سقطت الدراهم، ما جعلني أثير انتباه كل من كان حاضرا ويصوب نظره في الرجل البشع والفتاة المذعورة، اشربأت كل الرقاب نحوي.

أشرت على الرجل البدين أن يترك الفتاة في سبيل حالها، ويأخذ النقود من فوق الطاولة. تمنع وأظهر نوعا من الاستهزاء وأطلق ضحكة غبية كسرت جل توقعاتي في فض المسألة وديا ودون الاستعانة بالغلظة والشدّة، فهؤلاء الرعاع أعرفهم كما أعرف راحة يدي، لذلك أعرف جيدا الطريقة المثلى في التعامل معهم.

لم أمهله حتى يكمل ضحكته إذ ذاك نطحته بجبهتي ولويت ذراعه حتى سقط كالثور الإسباني المهزوم في حلبة المصارعة.

جمعت النقود من فوق الطاولة ورميتها عليه، دفعت الحساب وانصرفت مع الشابة ورفيقها الذي خذلها وباعها مقابل لعبة قمار.

طيلة الطريق كان يبكي بحرقه كالمرأة المكلومة ويغني بشجن ويتوسل للشابة أن تغفر له زلته، واعدأ أنه لن يكررها. لم تُجدِ محاولاته اليائسة نفعاً، أمام إصرارها وتعنيتها وتمسكها بموقفها ونفورها منه. فقد كانت تتأبط ذراعي ورأسها ملتصق بي إلى أن وصلنا إلى الشالي الذي يقيمآن فيه.

أخرج المفتاح بتثاقل وفتح قفل الباب. من شدة التعب والوهن ارتميت على أول أريكة صادفتها أمامي. نمت بعمق، لولا أشعة

الشمس التي أفسدت علي غفوتي لما نهضت. بقيت مستلقيا إلى ما قبل منتصف النهار. لما فتحت عيني انتهت إلى اللحاف الأزرق السموي الرقيق يلف جسدي، ولم أجد حذائي الذي تكاسلت عن نزعها البارحة من غلبة سلطان النوم.

لما نهضت أرشدتني إلى الحمام فقد كانت مئاتي ممتلئة على آخرها كأنها على وشك الانفجار. ثم جلست على الكرسي في طاولة المطبخ.

وضعت أمامي صحن مليئا بالغلغل والثمار، وكوب قهوة ساخنا، وعلبة حليب، وقطعة كيك. أحسست بجوع شديد ورغبة كبيرة في الأكل أمام هذه اللوحة الفاتنة في صباحات تطوان المشمسة. تناولت فطوري لحظتها كما لم أتناوله من قبل.

بعد أن فرغت، دس في جيبي ظرفا قمحي اللون، ورجتني بعد أن وضعت إصبعيها على شفتي بأن لا أفتح الظرف حتى أغادر الشاليه.

في البداية لم أستطع ترك الشرب والتوقف عن السهر، كان الأمر بالنسبة لي أشبه بالحلم المستحيل التحقيق. لكن جاء الوقت الذي عزمت فيه على بدء حياة جديدة.

كنت أتأهب لبلوغ سن تؤهلني للتفكير في الاستقرار واتخاذ قرار التوقف عن معاقرة الخمرة والتسكع من حانة إلى حانة وعن الانتقال من امرأة لأخرى، كان عليّ الفصل في الأمر بشكل حاسم، لا مجال للتردد فيه. بداية ذلك التغيير كانت مباشرة عقب انتهاء شهر رمضان الكريم والاحتفال بالعيدين الصغير والكبير.

تتجلى هذه الفترة دوماً في ذهني وذاكرتي من خلال بلوغ شهر الصيام وما يرافقه من أجواء روحانية وإنسانية غاية في الجمال والتأزر، يخفق لها القلب والفؤاد معا. وما يأتي بعده من أعياد تفرح النفس المثقلة وتبهج الأطفال الصغار.

تلك الفترة تحيليني إلى حدث استثنائي بموجبه عقدت قراني على ابنة عمي. بعد أن كنت لا أومن بشيء اسمه الرابطة الزوجية؛ فما فعله بي كل من ليلى حمودان الإدريسي ومن كنت اعتقد انه صديقي سي محمد لمبريطو، جعلني أكفر بأي رابطة، سواء كانت رابطة صداقة أو رابطة زواج على وجه الخصوص.

جرى الاتفاق بين أبي وعمي على تفاصيل العرس وكل ما يتعلق به من ترتيبات وتحضيرات ومتطلبات. وهكذا علمت لاحقاً ببعض

التفاصيل من أمي، التي كانت تنقل لي بين الحين والآخر غيظا مما كان يخبرها به والدي عما كان يدور بينه وبين عمي من أحاديث في الموضوع.

المهم استحسنت فكرة الزواج واستلطفتها خصوصا في تلك الفترة الحرجة التي كنت أمر بها في حياتي. كان لا بد لي من وجود امرأة حقيقية تسند ظهري وتشدد من أزرني وتكتم سري.

في البداية سارت الأمور على أحسن ما يرام، لكن تدريجيا بدأت تطفو على السطح أشياء لم أكن انتظرها إطلاقا؛ فبعد فترة تغير هذا الإحساس الجميل وانقلبت سعادتني المؤقتة رأسا على عقب، إذ مع مضي الوقت رويدا رويدا ظهرت أمور عكرت صفو ما كنت أنعم به من سكينته، حينها أدركت كم أخطأت وتسرعت في خيارتي، لا ريب أن مرد الأمر كان يعود إلى ليلي حمودان، فقرار زواجي من جميلة ابنة عمي مصطفى لم يكن دافعه الحب بقدر ما كان كرد فعل غير متبصر عن زواج حبيبتي السابقة ليلي بصديقي الذي خذلني محمد. لم يكن زواجنا أنا وجميلة مأتاه الحب ومبعثه أحلام مشتركة يتقاسمها أي حبيبين في مكان ما، قد يشتركان في الطموحات والرؤى، والتصورات حول ما ستكون عليه حياتهما وأبناؤهما المنتظرون، فزواج بغير عاطفة غامرة تعصف بقلبين وتعصرهما في كأس واحدة، أشبه بصلاة بغير وضوء، فكلاهما باطل، الزواج بغير حب يمكن الجزم ببطلانه، والحكم بفشله كما تبطل الصلاة من دون طهارة ووضوء.

أعرف أنني أدركت متأخرا هذا الأمر، لكن ما أعرفه أكثر إلى حد اليقين هو أنه ليس بإمكانني الاستمرار أكثر في أداء دور الزوج. فقد استحالت حياتي مع زوجتي وابنة عمي جميلة إلى جحيم، بت لا أطيقها، ولا أرغب حتى في رؤيتها. فقد هجرتها في الفراش، وأصبحت أخرج من البيت ولا أعود إلا بعد أن يسدل الليل ستائره. فلا أكلهما ولا أجتمع معها على مائدة الأكل، ولا أنام بجوارها على سرير واحد.

بت أقضي غالب وقتي مع صديقي الإسباني ماريانو باكارو، ثم تعرفنا لاحقنا على مومو حيون وهو من يهود تطوان. إذ كنا ثلاثتنا في تلك الفترة لا نفترق، كما لا يفترق الظل عن صاحبه، ومن يبحث عن أحدنا يجده مع الآخرين. وقد كان صديقنا مومو يدعونا أنا وماريانو من حين لآخر لتناول الطعام في منزل عائلته، حيث استمتعنا بتناول البسطيلة، والبريد، والمغاس، والمالوزة، والبسكوشو، وأطباق أخرى لم أكن أعرفها ولم يسبق لي وأن تذوّقتها في مكان آخر عدا على يد والدة صديقي مومو، لا أتذكر منها سوى خبز الرقاق الذي كانت تطهوه الخالة عزونة خصيصا في عيد الرقاق.

كما أتاحت لنا تلك الدعوات الاقتراب من عائلة صديقي، حيث تعرفنا على كامل أفراد عائلته الصغيرة، كانوا كلهم لطفاء وودودين معنا، ويتكلمون الدارجة المغربية مثلنا تماما، ومتشبهين بالتقاليد التطوانية في الموسيقى والمأكولات والملبس.

كما كان مومو يصحبنا أحيانا، وعندما تقتضي الضرورة فقط إلى مكتب والده العم أبراهام حيون؛ وهو تاجر كبير معروف في تطوان يتمتع باحترام كبير ويحظى بنفوذ اجتماعي بين أبناء الطائفة اليهودية في تطوان وبين أهل تطوان المسلمين كذلك. كما كان أعمامه يمتلكون أهم متاجر بيع المجوهرات والأزياء والأحذية في المدينة، وكانت أمه عزونة بنت الحاخام بنغاليد تنتج الملابس التقليدية، وتربطها صداقات متينة بالسيدات المسلمات.

ما كان يعجبني أكثر في صديقي مومو هو مواقفه الصلبة التي لا يحدد عنها أبدا، فقد رفض استكمال دراسته في المدرسة الإسبانية اليهودية التابعة للمستعمر الإسباني، على الرغم من أن جل أفراد عائلته وجيرانه اليهود كانوا يقصدون المدارس الإسبانية في تطوان دون أدنى حرج. إذ ركب رأسه وواصل تعليمه في مدرسة يهودية تابعة لمنظمة التحالف الإسرائيلي العالمي بتطوان.

كما لم يلتفت لاحقا إلى نداءات أبناء عمومته حول الهجرة إلى إسرائيل، واضطر للهجرة فيما بعد إلى مارسيليا ومنها إلى كندا، أما من تبقى من أفراد عائلته على قيد الحياة فقد هاجروا إلى إسرائيل في بدايات الخمسينيات ثم في نهاية الستينيات من القرن الماضي؛ إذ كان الرحيل الأول بعد سنتين من نكبة فلسطين عام 1948، ثم الرحيل الثاني مباشرة بعد نكسة حرب 1967 ميلادية.

كما لم يسبق وأن رأيت القريعية على رأس مومو، على غرار أفراد عائلته الذين كنت أشاهدهم يضعون تلك الطاقية الصغيرة دوما على قنّة رؤوسهم، حتى أثناء دفن والدته عزونة في مقبرة اليهود بتطوان التي تقع أمام مقبرة المسلمين لم تكن القريعية على رأسه.

رغم أنني كنت يومها مشدوها برهبة الأسوار العالية المحيطة بالمقبرة، وبشكل القبور المشيدة بلوح الرخام المنقوش باللغة العبرية، إلا أنني كنت في ذات الوقت أترقب المشيعين وأتفرس في الوجوه والملامح وأحدق في اعتبارهم وهيئاتهم؛ حيث كان الحزان أندري بنغاليد يقف بجانب الشموع الموضوعة على الهيكل، ويقوم بطقوس غريبة.

لم أترك صديقي مومو نهبا للحزن على فقدان والدته، فقد عزمت على مواساته والبقاء معه طيلة تلك الفترة العصيبة عليني أخفف عنه وجعه وبثه. حيث اصطحني معه إلى زيارة مجموعة من الأولياء اليهود، الأمر الذي فاجأني، إذ كنت أعتقد أن الأولياء والأضرحة والمزارات عند المسلمين فقط، إلى أن أدركت بعد زيارتي تلك أن لليهود أولياءهم أيضا ونصيبيهم من التبرك والترحم بالأضرحة والمزارات التي تحظى بقدر كبير من الاحترام والقداسة.

وكثيرا ما كنا نتردد على ضريح الحاخام إسحاق بن وليد، حيث تعتريه حالة من الخشوع تليها ترديده لمجموعة من التعبيرات الدينية العبرانية، لم أكن أفقه معانيها. وفي بعض الأحيان كنت أتركه منغمسا في حالته تلك وانخرط في الحديث مع أحد الزوار اليهود،

وقد أكد لي العديد منهم أن زيارة أضرحتهم تحقق لهم منافع جمّة، كالشفاء من الأمراض المزمنة والتبرك بالأولياء خصوصاً في مواسم الهيولة؛ حيث يتم إيقاد الشموع والترحم والصلاة والدعاء، وهي أشبه بالحج بسبب الحضور الكبير لليهود في تلك المواسم للتعبّد والتعارف ووصل الأرحام.

ثم صحبني على غير عادته إلى كنيس يهودي بوسط المدينة، حيث وضع فتى صغير في كف يدي أوراق الريحان الغضة، كنت أرقب من بعيد مومو إلى غاية إكماله طقوس صلاته، ولما خرجنا من المعبد اليهودي كنا نسير في دروب وأزقة تطوان على غير هدى، وفي الليل حضرنا سهرة ممتعة، أزالنا عنا فرقة الموسيقى الأندلسية شطراً كبيراً من الغم والهم.

لما غادر مومو إلى مارسيليا انقطعت أخباره فترة طويلة، لم أنسه فيها لحظة، فقد كانت تربطنا أواصر صداقة قوية وحميمية، كنت لا أتوقف عن التفكير في صداقتنا وأيامنا الجميلة التي قضيناها مع بعض، وفي مدى قدرته على تدبير شؤونه في فرنسا، وهل هو بخير وصحة وعافية؟ أم أن مكروها ما يكون قد أصابه؟

كان فراقه شاقاً وعسيراً، وكنت في الحقيقة مشوشاً، وغير مطمئن عليه في بلاد الغربة، إلى أن وصلتني منه الرسالة الأولى، مزقت الظرف البريدي كيفما اتفق وأخذت اقرأ أسطرها ويدي ترتجفان وقلبي يخفق من دون توقف، لم أشعر وإلا والدموع المتدفقة من عينيّ قد بللت الورقة وأحالت كلماتها إلى بقع حبر كالبحيرات الزرقاء.

في تلك الرسالة اكتفى بطمأنتي عنه، وأنه مستقر ولا يشكو من أي منغص، وأموره تسير وفق ما خطط له، كأنه أحس بما كنت أشعر به. وتواصل تراسلنا، ولم أشأ أن أكتب له عن حياتي المعطلة وأحلامي المؤجلة، حاولت قدر طاقتي أن أنقل له يومياتي مع ماريانو، حدثته عن تسكعنا في دروب وشوارع تطوان وجلساتنا في مقاهيها وحاناتها، كنت أنقل له مغامراتنا وغزواتنا التي لا تنتهي كي أدخل البهجة على

نفسه، وأبلغته كم نحن مشتقان له ونفتقد أيامنا الخوالي التي لا تعوض.

وفي رسالتيه الثانية والثالثة روى كيف تعوّد على العمل في الميناء على الرغم من مشقته، كما حدثني عن الغرفة التي يقيم بها رفقة أربعة عمال وعن استيائه من بعض سلوكياتهم وعاداتهم المنفرة، وكيف كان يمضي يومياته بين العمل والسهر والغرفة. ومن غير سابق إنذار تغير فجأة ولم يعد يكاتبني كثيرا كسابق عهده، فقط كنت أشعر أنه كان يرد على رسائلي من باب الإحراج لا غير، برسائل مقتضبة كأنها كتبت على عجل، يسأل فيها عن أحوالي وجديد أخباري، ويزودني بأخباره ويشتكى من وحدته.

إلى أن عاد تواصلنا كما كان أو أفضل من ذي قبل، فكنت ألتقى منه رسالة أو أكثر في الشهر، ولم أسع خلف فهم مدعاة ذلك. وقد روى لي في رسالته اللاحقة كل ما حصل معه مذ وصوله إلى مرسيليا، حيث لم يجد لا العمل ولا المأوى، فتعرف على رجل يهودي أرشده للإقامة في البيوت الخيرية لمنظمة الاتحاد العام الإسرائيلي بفرنسا، وكيف أن هذا التنظيم حاول اجتذابه في بادئ الأمر، قبيل تحصله على وظيفة الميناء. وكيف انخدع بصدق هذا التنظيم وسمو أهدافه لما وقف على اهتمامه بالأطفال القصر ورعايتهم في دور خاصة، وتأمين وجباتهم الغذائية والاهتمام بتمدرسهم، خصوصا مع الاضطهاد والمنع من العمل الذي كان يتعرض له اليهود في فرنسا آنذاك.

حيث اكتشف أن الإقامة في مثل هذه الدور يتطلب تبعية عمياء لقادة منظمة الاتحاد العام الإسرائيلي، فقد كان يُقبض على الفور على أغلب من يسجل عندهم من اليهود، ومن ثمة تتم عمليات التخطيط لترحيلهم بطرق ممنهجة إلى فلسطين.

كما حدثني عن نجاحه في الفرار بأعجوبة من قبضة منظمة الاتحاد ومجنديها من المتطوعين والموالين من أعضائها الشباب خصوصا الذين كانوا يشكلون الأغلبية. ساعده على الاختباء شاب

جزائري يقيم في حي من الصفيح، من بين الأحياء التي تحشد فيها الشركات عادة جموع عمالها، فأخبرني أنه رضي على مضض أن يبقى مقيما ومتواريا عن الأنظار لفترة طويلة امتدت لأشهر في هذا الحي، الذي هو أشبه ما يكون بقاعدة حياة لا تصلح لأي شيء ولا تتوفر بها أدنى شروط الحياة الكريمة، عدا أنه غارق في البؤس والشقاء.

كما كتب لي عن شركائه في ذلك البيت المتهالك، أغلبهم قدموا من المستعمرات الفرنسية بحثا عن عمل؛ حسان يحترف تركيب المدافئ، يبلغ سبعة وعشرين ربيعا جاء إلى مرسيليا من مدينة تيزي وزو، في حين موح الذي بلغ التاسعة عشرة من عمره قدم من شرشال، وهو يشتغل في تقطيع الزجاج، أما محند فهو يشتغل كعامل بسيط، ويبلغ من العمر ثلاثا وثلاثين سنة ولد في مدينة بجاية، والمنجي القادم من صفاقس متزوج وأب لثلاثة أطفال، يبلغ من العمر ثلاثين سنة، أما حمادي فقدم من تونس العاصمة وبالضبط من حي باب سويقة في المدينة العتيقة، ويبلغ من العمر ثلاثة وعشرين ربيعا.

كما روى لي قصة امرأة فرنسية كان منبها ببطيبتها ورقيقها، تدعى كلودين متزوجة من شاب جزائري ينتمي إلى فدرالية جبهة التحرير الوطني في فرنسا، كانا قد التقيا في القطار خلال العطلة الربيعية، وفي هذا القطار كان الشاب مأخوذا بجمالها وسحر كلماتها، بينما كانت هي غارقة في حديث شيق مع شاب قادم من الجنوب، من تلك المناطق التي وضعت الجمهورية الفرنسية عليها يدها بقوة النار والحديد واعتبرتها أقاليم تابعة لها. وتعددت لقاءاتهما فيما بعد، وقد أعجبت إذ ذاك بشجاعته ومواقفه النضالية البطولية، ودعمته لأنها تعاطفت مع أبناء شعبه المستعمرين من سلطة بلدها العاتية وآمنت بعدالة قضيتهم، ليتزوجا بعد أقل من سبعة أشهر من تعارفهما. وكى لا يثير أدنى شكوك من حوله، خصوصا وأن الأمن الفرنسي في تلك الفترة كان على أهبة الاستعداد لمكافحة أي نشاط معاد على أرضه، كان محمد الطاهر يصحبها معه إلى شقة رجل فرنسي تقع في شارع

ألكسندر دوما في الدائرة الحادية عشرة، وكانا يترددان عليها بمعدل أربع مرات في الأسبوع، لحضور لقاءات خاصة بتنسيق العمل وإعداد التقارير، وفي هذه الشقة كان محمد الطاهر وزوجته كلودين يقضيان الليل بأكمله وهما يشغلان، يتداولان على آلتَي الرقن والسحب، يسحبان الأدبيات السياسية الموجهة لإقناع المهاجرين المترددين في الانضمام إلى صفوف جبهة التحرير الوطني، كما كانا يتدبران أماكن مناسبة لإخفاء الاشتراكات والمداخيل المالية المتوفرة للفدرالية. وقد أتاحت تلك اللقاءات لكلودين أن تتعرف على مجموعة من الشباب والقادة على رأسهم أحمد دوم المكلف بالعمليات في منطقة باريس، ومحمد مشاطي المسؤول عن منطقة شرق فرنسا وفضيل بن سالم المكلف بالشمال الفرنسي، وأخيرا عبد الرحمان غراس مسؤول المهام في الوسط والجنوب، وهو الذي تكفل فيما بعد بعملية نقلهما هي ومحمد الطاهر من باريس إلى مرسيليا.

كانت كلودين كما كتب لي مومو تُحَضِّر لهم بعض الوجبات الساخنة من حين لآخر، اختارت السكن في هذا الحي هربا من معارفها الذين هددوها ولم يتوانوا عن اتهامها بالخيانة فقط، بل تمادوا في وصمها بالانحراف ومضاجعة الأجانب، واتهموها بالهوس بالجنس وبأنها ذات ميول شبقية مرضية.

ولما انتقل مومو إلى كندا أرسل لي رسالة واحدة يتيمة يعلمني فيها بوصوله ويطمئني عن صحته وأحواله، ويخبرني عن زواجه بفتاة يهودية تعرَّفَ عليها في حانة بمرسيليا حيث كانت تقام ليلتها حفلة صغيرة، ومن حين لآخر -كما روى لي- كان المغنون خصوصا القادمين من الجزائر يقيمون حفلات في المقاهي والحانات، وفي تلك المناسبات كان يحاكي المهاجرين، حيث كان يرتدي أجمل ما عنده من ثياب، قبل الخروج للاستمتاع بالجو الجميل الذي تضيفه تلك الجلسات والأغاني، فأخبرني بأنه أحب الأغاني الشعبية والقبائلية الجزائرية، وقد كان يخرج خصيصا بصحبة محند وموح

وحسان والمنجي وحمادي ليلتقوا مع المهاجرين الآخرين الذين كانوا بدورهم يعيشون مثلهم في مجموعات، مكونة من أربعة أو خمسة أفراد في الغرفة الواحدة.

في تلك الفترة تعرف مومو على مغنّ شاب، نشأت بينهما صداقة جميلة، وروى لي باستغراب بالغ كيف أن والد هذا الشاب وأهل قريته في القبائل بتيزي وزو نبذوه من القرية ومن المجتمع القبائلي ككل بعدما عرفوا بشأن دخوله للوسط الفني، فلا وجود لشيء اسمه فن أو تلحين أو موسيقى أو أغنية أو مسرحية في قريته، حيث لم يكن هناك فنانون في القرى عدا بعض النسوة، فهن من كنّ يؤدين الأغاني. ما اضطر صديقه هذا للمغادرة مكرها نحو الجزائر العاصمة في سن مبكرة جدا، ولما قدم إلى العاصمة لم تكن ظروفه لتسمح له بمواصلة تعليمه، لذلك فضل العمل حيث يسرت له توصية من أحد أقاربه الالتحاق لمباشرة العمل لدى خياط معروف جدا، وبدأ من حينها العمل كمساعد خياط. أتاحت له فرصة العمل تعلم مهنة الخياطة والتعرف على مجموعة من الفنانين الذين مدوا له يد العون في ولوج الوسط الفني من بابه الواسع، كتابة وتلحين وغناء، وهذه المرة استخدم اسما فنيا مستعارا بدلا من اسمه الحقيقي، تبصرا منه بالعواقب المحتملة وتجنبنا لكل النوايب المتوقعة.

كانت هذه آخر رسالة تصلني من مومو قبل أن تنقطع رسائله نهائيا، حتى تلك الرسائل المتتابعة التي أرسلتها له على ذات العنوان المكتوب على ظرف رسالته سرعان ما كانت ترجع مشطوبة من حيث أنت!

أمعن غيابه وانقطع رسائله في كآبتي وحرزني، وأجهض كل أحلامي في الذهاب لموافاته ولقائه مجددا، فقد كان يجب علي أن أرحل، إذ باتت تطوان تصيبني بالسأم وتثقل على صدري أكثر من أي وقت مضى، علني أجد عملا في أرض أخرى وحياة جديدة تنتظرنني. ومع ذلك بقي صديقي مومو يخطر على بالي باستمرار، وكلما حدث

وأن تذكرته في وحدتي القاسية، كلما كنت أنتهد قانطا ثم أتساءل في
قرارة نفسي: لماذا هذا النسيان؟ لماذا هذا الخراب؟

ذات مساء، تحادثنا أنا وماريانو على سبيل الصدفة عن السيد
بيروتشي، تفاجأت لما أخبرني بأن والده ما زال على تواصل معه!
سألته عن ذلك بنهم ثم رجوته أن يسأل والده عن عنوان السيد
بيروتشي في إسبانيا.

بعد أيام جلب لي عنوانه مكتوبا على ظهر نصف ورقة مطوية.
غمرتني فرحة عظيمة كادت لا تسعها روعي المتعبة. أحسست
كأنني أخلق فوق مرتفعات جبل درسة وسلسلة جبال الريف، ثم
أنخفض عند ضفاف البحر الأبيض المتوسط وفي المناطق الفلاحية
المزروعة في تطوان.

كان علي أن لا أتأخر لحظة، في يوم الغد كتبت نص رسالة باللغة
الإسبانية، بثت فيها كل مشاعري، في ذلكم المساء، لم أستطع أن
أخفي غبطني على أحد، فقد كانت كل حركاتي وسكناتي تفضحاني.

بعد أن أرسلت له الرسالة الأولى بقيت أنتظر، لكنه لم يرد.

أرسلت له رسالة ثانية، ثم ألحقتها بثالثة، لكن لا جدوى.

لما فقدت الأمل نهائيا، وصلتني رسالة منه بعد ثلاثة أشهر.

كنت سعيدا جدا برده إلى درجة لا يمكن وصفها.

إذ ذاك ما هي إلا سنوات حتى أعاد الحنين السيد مانويل بيروتشي
إلى الإقامة بتطوان. ما هي إلا أشهر بعدها حتى توفاه الأجل، بالضبط
كانت أحد عشر شهرا.

أقيم له قداس الجنازة في كنيسة المدينة حضرها أكثر من
أربعمائة تطواني مسلم، الرجل كان محبوبا في أوساط الناس
البسطاء، حيث كان يعيش بينهم ويختلط بهم، ويتكلم معهم اللهجة
المغربية مخلوطة بكلمات إسبانية.

أشهر من الغبطة والفرحة غير المكتملة، ثم غادر بعدها إلى غير رجعة، تركني بعدها نهبا لذكريات وهموم وأحزان لا حصر لها، بل بت وحيدا واتسعت فجوة يتمي أكثر من أي وقت آخر، ولم يعد في القلب هناك متسع للمزيد من الجزع والفقدان.

جعلني موت السيد مانويل بيرتوشي أستعيد أشخاصا كانوا ذات يوم أقرب لي من حبل الوريد، وأحداثا جساما عرفتها في الأيام المنصرمة من عمري؛ ها أنا ذا أستعيد بمرارة ذاك الرجل العظيم مخلوف الصبايحي الذي لن يعوض أبدا، صراحة كان أشبه بأخ كبير عطوف أو كآب حنون وحريص يهتم بأمرى ويستفسر عن شؤون حياتي، وكان لا يهنا له بال حتى أروي له ما يطمئنه عني. لم تسعفني ظروفى غير المستقرة أن أفى له بفضلله وهو على قيد الحياة، وهما هو دينه يخنقنى ألما وحسرة بعد أن توفاه الآجل وألتحق بدار البقاء. لما عرفته كنت طفلا صغيرا بدأ لتوه ولوج آثام العالم السفلى، ولم يستوعب بعد شؤون الحياة وتصاريها، وانقلاباتها وزلازلها، كنت صغيرا جدا على إدراك ذلك، كفرخ خرج لتوه من بيضة، لكننى على الرغم من كل ذلك ما زلت أتذكر جيدا هذا الرجل النقى الطاهر، الذى اضطرتله الظروف القاهرة إلى العمل ضمن فرقة الصبايحية فى الجزائر، وأن يشارك فى حروب بالنيابة عن الفرنسيين فى دول عدة، إلى أن وطأت قدماه أرض المغرب بعد أن صحبه قائده العقيد جوزيف دوكرو. فى حقيقة الأمر كان رجلا شهما ورفض تعليمات قادته العسكريين فى قتل مواطنيه الجزائريين، لم يرضخ لأوامر الضباط بإعدام زعماء النضال ضد الاستعمار، وكان هؤلاء الضباط يصابون بالوجوم والذهول، ويستشيطون غضبا من تمرد مخلوف وزملائه الصبايحية؛ رفضهم الامتثال لأوامر القتل، وعدم تنازلهم عن أحصنتهم لحمل جثث القتلى من السفح إلى الجبل، وعدم انصياعهم وامتثالهم لأوامر التنكيل بالجثث كقطع الرأس عن الجسد. غالبا ما كان مخلوف يغرق فى البكاء على سفك قادته لأرواح أبناء جلدته.

كما أن أيامي بدت رتيبة، ففي لحظة انكفأت على نفسي، لأنني كنت أشعر بألم ضربات الحياة وهي تنهال على قمة رأسي، ثم على جسدي من كل جانب؛ بعد أن ابتعدت في البداية عن محمد لمبريطو بُعِيدَ أن اكتشفت أنه طعنني في الظهر بخنجر صديء، وفي فترة أخرى من قادم الأيام انقطع تواصلني مع الأمين حمودان، صراحة لم يعد لبقاء صداقتنا جدوى، خصوصا بعد أن خذلتني أخته ليلي مع محمد، فما بقي من تلك الصداقة لا يعدو أن يكون سوى نحيب غريان سوداء على ماضٍ لن يعود أبدا.

كل ذكرياتي حول هؤلاء الأشخاص وتلك الأحداث المؤلمة التي انفتحت فجأة أمام ناظري، تصيبني بالهيجان والذعر اللذين يجعلاني أشبه ما أكون بالخفافيش المهتاجة والمذعورة لحظة تعميمها أشعة النور على حين غرة. فظلام النسيان المسدل على الذاكرة أهون عليّ من أشعة الذكريات الساطعة التي تدمي القلب وجعا وتثقل الروح حسرة وألما.

في الطريق إلى الجزائر اجتزت أنا ومن كانوا يرافقوني أعظم الكروب حدة وأشد الاختبارات قساوة، فقد كانت جُل الطرق وغالبية الممرات التي عبرنا عليها شائكة ومرعبة جدا إلى درجة يصعب وصفها. فقد مشينا في ظروف قاهرة جدا، حيث كانت درجة الحرارة تتجاوز الأربعين مئوية، فكثيرا ما كنت أختنق بفعل ارتفاع معدلات الحرارة غير المحتملة في حمارة القيظ. وأحيانا تنفذ منا المؤونة والماء، فنضطر مكرهين إلى مواصلة الطريق في بيئة تضاريسها قاسية جدا دون طعام يسد رمقنا ويسند ظهورنا وماء يروي عطشنا. لما نتوقف أو نواصل المشي كان أنيسنا في رحلتنا الشاقة تلك البعوض والأفاعي والسحليات ومختلف الضواري المفترسة والضباع. كنا مهددين وعرضة لأي خطر داهم في ضوء النهار كما في ظلام الليل الدامس، وكانت حياتنا في الخلاء الموحش دوما في مهب الريح.

لما تمزق نعلي اضطرت أن امشي حافي القدمين على الأرض، طيلة أيام بأكملها كان العشب اليابس والحجارة الحادة يسببان لي جروحا وندوبا ألمها لا يطاق، أما التراب الجاف والأرض الملتهبة التي كنت أطأها فحرقت باطن قدمي، وسببت لي رضوخا وشقوقا لا زالت صورتها إلى اليوم ماثلة أمامي.

في رحلة العبور تلك فقدنا بعضا من رفاقنا من لم تسعفهم طاقتهم على المواصلة، أن تكون معرضا للجوع وعواصف الغبار في

الربيع الخالي من الأرض فذلك ليس بالأمر الهين. أن تكون على شفير الهلاك، سواء صرخت بملء صوتك أو استنجدت بكل ما بقي فيك من قوة، فلن يسمعك أحد. الموت أقرب إليك من أي شيء آخر.

لما بلغنا منطقة زوج بغال شعرت بفرحة غامرة لا حد لها، فقد نجونا من موت مؤكد. اجتزنا تجربة عصبية جدا، لا أملك الشجاعة لتكرارها مجددا. بالكاد خرجنا من المحنة، تنفست الصعداء. ليست لدي رغبة حتى في مجرد التفكير في حدة وشراسة الطبيعة التي مررنا بها، وفي ثقل النوائب وفضاعة ما صادفناه في رحلة العبور إلى الجزائر.

أعتقد أن الشخص الذي أطلق تسمية زوج بغال على المنطقة الحدودية بين البلدين، إما رجل أبله ضعيف الخيال، عجز مخياله عن الإتيان باسم مشرف من بين كل التسميات التي قد تكون متاحة في هكذا موقف، وفجأة وقع بصره على منظر بغلين يسرحان أو يصطكان في المكان فأطلق هكذا دون عناء أو تفكير تلك التسمية على المنطقة. أو أن الرجل ذكي وتفتن إلى مستقبل العلاقة بين الأخوين اللذين سيتحولان إلى عدوين لدودين، لذلك وصفهما بالبغليين لوضعهما البائس وجهلهما المركب الذي أباح للقاصي والداني أن يركبهما كأبلهين استنزفا قواهما ومواردهما في صراع أبدي لا طائل من ورائه.

وقد سمعت لاحقا على لسان سي قدور الوناس حكايات متفرقة عن سرّ هذه التسمية الغربية، أهمها أن هناك ساعيا بريدي يمتطيان بغلبيهما للتنقل، يلتقيان في تلك النقطة، لتبادل المراسلات والطرود، خلال أواخر القرن التاسع عشر. كما روى لي ذات مساء أن هناك من أخبره أن تسمية المنطقة هي تحريف لنطق اسم قائد عسكري فرنسي يدعى «جورج بيغيل».

وقد حدثني عبد الملك بن عاشور قبل أن تطرده السلطات الجزائرية إلى المغرب، عن قصة أخرى مختلفة عما سبق وسمعته

بشأن التسمية، فروى لي أن مأتاها يرجع إلى نزاع بين قبيلتين حول قطعة أرضية، القبيلة الأولى من وجدة والأخرى من بني واسين. وقد ادعت كل قبيلة أحقيتها في الأرض المتنازع عليها، وفي سبيل حل الخلاف وإنهاء الصراع بين القبيلتين، اقترح أحد الحكماء أن ينطلق شخصان، كل واحد على ظهر بغل في اتجاه الآخر، وحيثما يلتقيان فتلك هي الحدود الفاصلة بينهما، فانطلق الأول مشرقا من ضريح سيدي يحيى بن يونس بأرض وجدة، أما الآخر انطلق مغربا من ضريح الحاجة مغنية بأرض بني واسين، فرسمت حينها الحدود وأطلق وقتذاك على المكان تسمية «زوج بغال».

دوما ما كان حضور مدينة مَغْنِيَّة طاغيا في الذاكرة، بكل أحوالها ومناخاتها وعوالمها ومعالمها؛ المساجد ومدرسة جمعية العلماء المسلمين، مقبرة ومقام لآلة مغنية، وتمثال الأموات، ومقبرة المسيحيين، ومقبرة اليهود، والبلدية، الجامع الكبير وجامع اليهود والكنيسة، ومدرسة البنات ومدرسة الذكور، الشوارع والمكتبات وقاعات السينما، النباتات والنخلات وأشجار الزوج والصنوبر والدفلى. فكل الأحداث الماضية التي عشتها أو عايشتها أو سمعت عنها هناك، في تلك المدينة الأسطورية قبل زمن بعيد يمتد لعقود لا زالت حاضرة اليوم بقوة، تتراقص مشاهدها أمام ناظري بكل وضوح، كأن لم يمض عليها إلا مجرد لحظات أو أيام قليلة.

أعتقد أن ما جعل تلك المدينة تحظى بكل ذلك الحيز الرحب في ذاكرتي، ولم يفلح النسيان في لف تفاصيل ما خبرته هناك، مأتاه أن تلك المدينة ترتبط في الذاكرة بشيئين اثنين، لا ثالث لهما؛ أولهما أنها كانت أول مدينة جزائرية وطأتها قدمي، وأنها الأقرب إلى مدينة وجدة المغربية عبر معبر زوج بغال، وكان عدد كبير من الجزائريين والمغاربة على جانبي الحدود تربطهم قرابة عائلية، حيث كان القطار يجتاز يوميا الحدود بين البلدين بكل بساطة وبعيدا عن

أدنى التعقيدات المحتملة، قادما إلى المدن الجزائرية عبر سلسلة من المدن المغربية.

أما اليوم وبعد توقف القطار، وغلق الحدود البرية بين البلدين، غدا حراس الحدود على الجانبين أشبه بأشباح في بنايات مهجورة، يظهرون ويختفون فجأة، وأعلام البلدين على بعد أمتار قليلة ترفرف متمردة، وأشجار زيتون مصطفة، وصوت كلب أجرب يحّ صوته من النباح، وجبال جرداء وحمراء، ومجموعات مشتتة من المهربين هنا وهناك يقايضون البنزين والمازوت بالملابس وأشياء أخرى في طريق فرعي غير بعيد، في مشهد عبثي مثير للسأم. قطعت السياسة كل الأواصر بين العائلات وصادرت حقهم في التنقل، فقط الطيور وحدها هي من استمرت في التنقل بين جانبي الحدود الملعونة، وأستمر هؤلاء الناس طيلة عقود يحملون بعودة ذلك الزمن، ويترقبون بأمل يخبو طورا ويطفو حيناً آخر قرارات بإمكانها إرجاع شمل العائلات المشتت بين البلدين.

وثانيهما لقائي العفوي بزوجتي بختة بلحسن على طريق الصدفة، حيث قادتني الأقدار أن أعقد قراني عليها لاحقا، بعد أن قصدت برفقة رفيقي في النضال عبد المجيد بن منصور منزل والدها أحميدة بلحسن. وقد جمعت بين عبد المجيد وأحميدة صداقة صلبة لها جذور تمتد لزمان طويل، حيث كانت عائلتهما تسكنان تحت سقف واحد قرابة الثمانين عاما في مناخ من الود والمحبة وحسن الجيرة، قبل أن يغادر والد عبد المجيد من مَغْنِيَّة إلى الإقامة والاستقرار النهائي بمدينة تلمسان بعد وفاة الجد.

بدأت بختة دراستها في مدينة تلمسان ولم تكملها بسبب تعقد الأوضاع وتفاقم عمليات الانتقام التي كان يشنها الجنود الفرنسيون ورجال الشرطة وبعض المعمرين العنصريين آنذاك، لذلك كان عليها في تلك الفترة لزوم منزل والدها، خصوصا وأن رقيقات طفولتها لم يدخلن المدرسة قط، بسبب العادات والتقاليد والطباع التي كانت

سائدة وقتذاك، حيث انتشر الجهل في أوساط الناس ونقص الوعي الناتج عن غلق المدارس وحملات التجهيل التي قادها المستعمر بضراوة.

وقد عاشت بختة في تلك الفترة ظروفًا صعبة وقاسية، بقت راسخة في ذاكرتها، لدرجة أنها لم تتوقف عن رواية تفاصيلها بعد الاستقلال بمناسبة أو بدون مناسبة!

كانت بختة تتمتع بشخصية قوية وذات روح خفيفة لا تغادر شفتيها الصغيرتين ابتسامتهما المشرقة وطبعها يغلب عليه المزاح والفكاهة، كما كانت تتسم بقلب كبير وحنون يسع الجميع، فقد كبرت وترعرعت وسط عائلة عدد أفرادها كبير، حيث يسود مناخ من الألفة والإيثار والتشارك والمقاسمة للتغلب على الظروف القاسية.

ولما انتقلت بختة إلى مدينة وهران للإقامة عند خالتها مباركة الأرملة، انبهرت بجمال وهران، كما روت لي؛ فقد خلبها منظر كنيسة سانتا كروز، واندهرشت وهي ترى معمار المدينة الأوروبية، كما فتتها الطراز الإسباني في المعمار، ولم تكن تتوقع ذلك الأثر الكبير على نفسها وهي ترى القلعة القابعة في موقع استراتيجي، كما بقت ألفة منظر البحر في شاطئ بوي فيل غير البعيد عن شاطئ عين الترك وصورة قناديل البحر المختلفة الألوان؛ الوردية والبنفسجية، وغيرها، تثير فيها بهجة غير عادية. كما سحرها الميناء الغاص بالسفن والمراكب الراسية وبقت أجواؤه مطبوعة في ذاكرتها، ودوما ما حدثتني عن مسار الترامواي، وأسماء كل محطاته التي كانت تحفظها عن ظهر قلب.

أما بخصوص خالتها فقد حكّت لي عن طبعها الحاد، وصرامتها، وطريقة لباسها التي تشبه المعمار الأوربيات، فقد كانت لها علاقات صداقة مع بعض العائلات الأوروبية البورجوازية ومن الطبقة الوسطى كذلك.

ساهمت صديقة خالتها السيدة شانताल وهي مديرة مدرسة عمومية فرنسية في إدماجها بمدرستها، الأمر كان صعبا في البداية على بختة، لأنها لم تندمج مع زملائها في الدراسة ومع البرنامج الدراسي الموضوع، كما روت لي؛ الأمر الذي انعكس في النتائج الهزيلة التي حصلتها في بداية الموسم، لكنها سرعان ما استدركت واندمجت تماما بفضل إصرارها ومواظبتها واجتهادها، كما كان دعم السيدة شنتال مهما جدا في اجتيازها تلك العقبات؛ إذ كانت في حقيقة الأمر سيدة محترمة في غاية اللطف معها وفي أتم الاستعداد لمساعدة العون لها في أي وقت وتحت أي ظرف كان أو أي طارئ. وبعد أن حصلت بختة على الشهادة الابتدائية، التحقت بالمتوسطة حيث تعرفت إذ ذاك على بعض الفتيات، زميلاتها في المرحلة المتوسطة، هن في الأصل مناضلات في منظمة اتحاد النساء التابعة لحزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري المعتدل، الذي أسسه المناضل فرحات عباس في عام 1946 ميلادي.

على الرغم من أن رغبتها الدفينة آنذاك كانت الانخراط في صفوف حزب الشعب الجزائري المطالب باستقلال الجزائر. وبعد سنة 1953 حيث انفجرت حركة انتصار الحريات الديمقراطية إلى نصفين؛ نصف يقوده المصاليون والنصف الآخر تحت سيطرة المركزيين، وبالضبط بعد مضي سنة من ذلك التاريخ الفاصل قررت بختة الالتحاق بالعمل المسلح تحت قيادة جبهة التحرير الوطني، فقد أخبرتني أنها تعلمت حمل السلاح وكيفية استعماله، وبسبب منظرها القريب من الأوروبيات، تم تكليفها بتنفيذ العديد من العمليات داخل المدن والأحياء، فكانت ترتدي التنورة أو الفستان في أغلب المهمات المسندة لها، إذ تسمح لها الملابس الأوروبية ومظهرها بمراوغة الجنود والعساكر الفرنسيين في الحواجز المنصوبة، ما يتيح لها التنقل بيسر في كل الأمكنة.

كانت تمرر الأفراد، والوثائق، والأموال، وقطع الأسلحة، والأدوية؛ كالبنسلين والمضادات الحيوية إلى المجاهدين، لفك الخناق على التضيق المضروب على تموين جبهة وجيش التحرير الوطنيين، إذ أن السلطات الفرنسية باشرت منذ الأيام الأولى لاحتدام الكفاح المسلح مراقبة مجموعة مهمة من الأدوية، وعلى رأسها أدوية علاج التهابات الجراح، والكحول، والحقن المضادة للكزاز وأدوات العمليات الجراحية؛ فبفضلها تم توفير الكثير من الأدوية الضرورية التي استعملت في إجراء العديد من العمليات الجراحية المستعجلة، ولمعالجة جرحى الحرب كذلك.

ثم بوساطة من خالتها مباركة عملت كمساعدة طبية فرنسية في عيادة تقع مقابل مبنى الدرك الموجود خلف الكاتدرائية وغير البعيد عن ثانوية البنات. مكنتها تلك التجربة، التي لم تستمر فترة طويلة، من إتقان كيفية التدخل الطبي الاستعجالي؛ كوضع الكمادات، واستعمال الإبر الطبية، ومختلف الأدوية الضرورية في مداواة الجراح، إذ ساهمت في حقن المئات بحقن المصل الواقي من الكزاز، حتى ولو كانت جروحهم طفيفة، خوفاً من التيتانوس الذي أهلك المئات من الجرحى، كما كانت تضمّد الجروح في الكثير من الأحيان بواسطة الماء الدافئ لغياب الكحول، وقد اضطرت في العديد من المرات إلى القيام بعمليات البتر دون تخدير.

كما قصت عليّ كذلك قصص بعض المجاهدين الذين اختاروا اللجوء إلى بيوتهم بعدما تعفنت جروحهم، واستنفدوا كل الطرق والحيل والتوسلات للصيادلة. ولما يئسوا من انتظار الدواء، وفقدوا جلاً الأمل في الحصول على العلاج، كانوا ينتظرون الموت المرعب والفظيح ويكابدون في صمت.

والأهم من ذلك أنها أصبحت تحصل على الأدوية بيسر من الصيدليات، التي كانت تشترط على أي جزائري يأتي لاقتناء الأدوية المصنفة ضمن الأدوية التي طُبِّقَ عليها قرار منع بيعها للجزائريين،

تقديم معلومات وافية ومفصلة عن مقتني الدواء، وعن هوية المريض وحالته الصحية. وبعد وشاية بها، وهربا من الاعتقالِ الوشيكِ عادت مرة أخرى إلى بيت عائلتها بمدينة مَغْنِيَّة. في حين أوقفتِ الطبيبة الفرنسية بعد ثلاث سنوات كما أعلمتها خالتها مباركة، وعذبت تحت تهمتي تنظيم دروس سرية لأفواج من الممرضين والمساعدين الطبيين التابعين لجيش التحرير الوطني، وإيواء مسؤولين سياسيين وعسكريين من الثوار.

كان يوماً مشمساً وفجأة خيم الظلام في وضح النهار، واستحال ذلك النهار الجميل إلى نهار شاحب، تلك العتمة أثقلت صدري، كأن مكروها أصابني. لحظة شاهدت سحاب ذلك اليوم كتوماً، لا رعد فيه، أدركت أنها علامات تنذر بالشر القادم أو أن هناك أخباراً سيئة تحوم في الأفق.

أول من رأيته يومها كان بوزيد بن جبار، وهو ما رسخ لدي بما لا يدع مجالاً للشك الانطباع السلبي الذي سبق وابتدأت به يومي، فكل المقدمات إلى حد اللحظة توحى بالعواقب والنوائب المنتظرة. في الحقيقة كنت دوماً أشمئز من رؤيته، فما بالك أن أصبح عليه. على الرغم من أنه كان أول من عرفته أثناء صعودي إلى الجبل، لكن أدركت بعد فترة وجيزة من الاحتكاك به، أنه مختلف تماماً عن الآخرين.

بُتُّ لا أطيقه إلى درجة التنافر، كنا لا نجتمع كما الماء والزيت، ومن فرط ما كنت أبغضه كان يبدو لي بشعاً جداً، إلى درجة أنني كنت أنخيله كحشرة عملاقة قذرة. فهو لا يؤتمن له جانب، يفعل أي شيء من أجل نزواته ومصالحه، لا دين ولا ملة كما يقال.

لا أدري كيف صعد إلى الجبل وحمل البندقية في وجه الاستعمار الفرنسي. على غرار كل رفاق النضال الذين عرفتهم وتوطدت علاقتي بهم فيما بعد، تقاسمت معهم الشدة والفرح، أيام الفرحة القليلة

على وقع حرب وحشية وظالمة انتهك فيها الفرنسيون كل المواثيق والقوانين، وأيام القرح بلياليها الطويلة التي لا تكاد تنتهي، حتى تقضي على صبرنا وصدودنا وأملنا في النصر.

كان هو مختلفا عنهم، سلوكاته مناقضة لهم تماما. فقد كان بيننا كالكلب الأجرّب، كان ندلا وقدرا وحقيرا إلى درجة لا يمكن وصفها. كما كان لا يتوقف عن إزعاجنا وإثارة مخاوفنا. لم يكن محل ثقة أي منا، لا أحد يستريح لوجوده، فلا يؤتمن عنده سر.

كما كان من فترة لأخرى يقوم بأفعال مشينة؛ إذ كان يتربقّب النسوة الريفيات اللواتي يصعدن إلى الجبل من أجل جمع الحطب، دوما ما تجده ينهض باكرا، يتوجه إلى منطقة كثيفة الأشجار بعيدة بعض الشيء عن مركز تجمعنا، وبعد أن يفرغ من ربط رزمة الحطب التي يكون قد اقتلعها، يخفيها عن الأعين. يختار موقعا يتربص فيه بالنسوة، لما يصلن ينتقي أجملهن، وتحت تهديد السلاح تدعن له مرغمة، يبعتها عن سرب النسوة ويأمرهن بمواصلة طريقهن، يأخذها إلى مكان غير بعيد يكون قد خبره من قبل. وبعد نصف ساعة، أو ما ينوف عن ساعة زمن يصطحبها مجددا إلى موقع هؤلاء النسوة، ويتركها ترجع إلى بيتها وعلى ظهرها رزمة هائلة من الحطب مربوطة بإحكام. وفي نهاية الأمر اكتشفنا أن بوزيد بياع تاع فرنسا، فقد كان يشي بنا وبتحركاتنا ومخططاتنا التي تصله. ولو كان مصدر ثقة لحلت الكارثة، أقل الأضرار أنه لم يكن فوق كل شبهة، كان مبعث توجس وريبة من غالبية الإخوة في الكفاح.

ولما وقعت في قبضة فرقة الكولونيل شاربوني سيئة الصيت، أدركت كم كان هذا الرجل رهيبا جدا ويتلذذ بمعاناة ضحاياه، كما كنت أسمع عنه من قبل. ولا أعتقد أن هناك أسلوبا في التعذيب أفظح من أسلوبه؛ فقد أيقظوني في اليوم الأول ليلا من النوم، بطريقة تدعو للفرع، جردوني من ثيابي مرغما على وقع الضرب المبرح، ثم نقلوني خائر القوى إلى غرفة موحشة في قبو بارد ورطب تفوح منه

رائحة كريهة، لم تكن توجد فيها نوافذ ولا حتى مساحات يمكن أن يتسلل منها الضوء. بحثت عن بقعة أكثر جفافاً كي أرتمي عليها، كان البلل الممزوج بالرائحة النتنة يثير تقززي وحساسيتي الى درجة لا توصف. يبدو أن الأرضية مبللة بالبول ومطلية ببقايا البراز.

كان الكولونيل شاربوني جالسا على كرسي من حديد أسند ظهره بوسادة من الإسفنج، أمرهم أن يوثقوني في لوحة مستطيلة كانت أشبه بالباب في وضع أفقي. فجأة وقف الكولونيل وتقدم مني بخطوات، نظر في عيني باستعلاء، ثم انخرط في الضحك باستهزاء كالمجنون. أشار بغمزة خاطفة من عينه الزرقاء التي تتقد شررا وشرأ إلى الجندي الشاب الذي يقف قريبا من جنبي الأيمن، دون مقدمات توجه هذا الأخير صوبي، انحنى قليلا لالتقاط خيط المولد الكهربائي، كنت ارتجف من البرد والخوف، لكن حاولت جاهدا أن أضغط على نفسي، كي لا أضعف.

أردت أن أظهر أمامهم متماسكا وعصيا على الترويض. لم يابه الجندي لي، وبطريقة آلية وضع الخيط الأول على أذني والآخر فوق عضوي التناسلي، يبدو انه اعتاد على الأمر من كثرة تكراره. انتبهت للكولونيل وقد أشار بحركة من يديه للجندي الثاني الذي يقف بمحاذاة الطاولة التي وضع عليها المولد، دون أن يمهلني لحظة واحدة لاستدراك وفهم الأمر، شغل الجهاز الكهربائي.

بدأ جسدي يهتز بشكل رهيب من شدة الألم. كدت أن أفشي لهم بكل المعلومات أثناء الاستنطاق، لو لم يأت جندي في طلب الكولونيل شاربوني للرد عن اتصال مستعجل من القيادة العليا. فجأة توقف التعذيب بالكهرباء. فقد أرغمني على ابتلاع أكثر من خمسة عشر لترا من الماء، كان أحدهم يضغط بشدة على تاج فمي، والآخر يسكب الماء في أداة وضعوها في فمي وأنفي. شعرت بالاختناق ورتناتي كأنهما انسدتا ومعديتي تكاد تنفجر.

كنت طيلة ساعات رهن التعذيب والاستنطاق بلا أدنى رحمة. وفي مراتٍ أُخر، كنت أبقى لفترةٍ طويلةٍ معلقاً بالمقلوب، رجلي في الأعلى ورأسي في الأسفل، كانوا يقيدونني من رجلي ويديا موثقتان خلف ظهري، ورأسي في الأسفل مغموس في سطل الماء إلى حد الاختناق، ومن ثقل جسدي وأنا على هذا الوضع كانت مفاصلي تكاد تتمزق. وفي بعض الأحيان كانوا يستمتعون بإدخال رأسي في فوهة المرحاض إلى أن يختنق صوتي من الصراخ، فيسحبونني، ويرجعوني إلى الغرفة متهالكا كالغريق.

كما كنت أسمع بين الحين والآخر أصوات أطفال ونساء تئن تحت هول التعذيب، كان أنين تلك الأصوات أشبه بالعواء! في التعذيب لا فرق بين كبير أو صغير، أو بين رجل وامرأة، أو بالغ أو طفل! كل من صادفتهم داخل مركز التعذيب كانت وجوههم مشوهة، وأعينهم زرقاء ومنتفخة، وأنوفهم مهشمة، ورقابهم منتفخة وعليها آثار التعذيب، وهناك منهم من فارق الحياة من شدة التعذيب وقسوته.

التعذيب كان يمارس يوميا لمحاولة إرغامنا على الكلام. كنت كل ليلة أسترجع بعضاً من تلك المشاهد الصادمة في مركز التعذيب، وتأتى أمام عيني صور القصص التي رواها لي المعتقلون؛ منذ بضعة أيام من اعتقاله، شاهدت مجموعة من الجنود الفرنسيين ينهالون بالضرب المبرح على ثلاثة معتقلين مقيدين لا حيلة لهم أمام ما كانوا يتعرضون له من تنكيل وتعذيب، ثم رموا عليهم ثلاثة كلاب جائعة نهشت لحمهم، ولم يتم إيقافهم للحظة إلى أن لفظ أحد المعتقلين أنفاسه متأثراً بنزيف حاد، بينما كان الجنود يقهقهون ويتضحكون، إلى أن أمرهم قائدهم بحمل جثة الضحية ونقل المعتقلين الآخرين إلى عيادة المركز وهما في حالة مزرية بين الحياة والموت.

كان مشهداً مفرعاً، وكانت صورة ذلك المعتقل وهو غارق في دمائه ووجهه مشوه وجسده منهوش تدعو إلى الأسى، وكنت أصاب

بالهلع وأغرق في حالة من الكآبة والحزن كلما استحضرت تلك الحادثة.

كما رأيتهم بُعِيدَ تلك الحادثة يخرجون جثة طفلة لا يتجاوز عمرها السابعة عشرة سنة، دون أن يظهر عليهم أيُّ تأثر، على العكس كان التعذيب والقتل بالنسبة لهم مصدر متعة وشغف. سمعت لاحقا من أحد المعتقلين في المركز أنهم كانوا يتداولون على اغتصابها وإذلالها، وقد رَوَّجُوا فيما بعد إلى أنها انتحرت.

عمليات الاغتصاب كانت تحدث يوميا بالموازاة مع المعاملات الوحشية أثناء التحقيق والاستنطاق، فلم يسلم منها لا الأطفال ولا النساء الحوامل! وخلال الأيام الأخيرة لي في المعتقل وقفت على الكثير من الجرائم البشعة التي ارتكبتها الجنود الفرنسيون بوتيرة متصاعدة أمام مرأى الجميع دون أدنى وازع، كأنهم في سباق مع الزمن على ارتكاب أكبر قدر ممكن منها! وكأنهم فوق كل مساءلة أو محاسبة بله محاكمة.

كان ما وقفت عليه يفوق كل تصور أو توقع، ما كان يمكن لأحد أن يتصور أن لهؤلاء الجنود تلك القدرة الرهيبة على الاجرام والوحشية؛ فكنت أرى الجنود المهتاجين وهم ينهالون بالهراوات أو بمؤخرات بنادقهم ضربا على رؤوس المعتقلين الجزائريين، لتتحول الضربات فيما بعد ودون أدنى تردد إلى الوجه والظهر والركبة، ثم إلى الجمجمة وإلى جهة الأعضاء التناسلية.

هذا فضلا عن عدم التردد في استخدام خراطيم المياه والكهرباء وكل الوسائل الفظيعة الأخرى، للتسريع في عمليات استنطاق الشهود، لكن على وجه العموم كانت أهم الوسائل والتجهيزات الأساسية المتاحة دوما تكمن في المولد الكهربائي، وتوفر الماء، والهراوات الصلبة، أما الوسائل الأخرى فيتم توفيرها حسب الضرورة التي تستدعيها، كإيلاج أدوات صلبة في دبر المتهم، وكبي الأرجل والأعضاء بأدوات التلحيم، ووضع قطعة قطن مغموسة في الكحول

على الأعضاء التناسلية ومن ثم إشعالها بولاعة السجائر أو حرقها بالسجائر مباشرة، والضغط على أصابع الرجل أو اليد بفكي كماشة. كما كانت تغمد أرجل المساجين والمعتقلين في إناء مملوء بالاسمنت غير الجاف، وتترك إلى أن تجف إلى حد الموت، ثم يتم رميهم في الأودية أو يلقي بهم من المروحيات إلى البحر! فكنت أرى أجساد الشباب والشيوخ خائرة ومنهارة، والدماء متدفقة من أفواههم على حد سواء دون أدنى تمييز أو رحمة، حتى بأولئك الذين ما زالت آثار التعذيب السابق لم تشف بعد، يعاد إخضاعهم للتعذيب مرة أخرى، فلم تشفع لهم أجسادهم المليئة بالجروح المخاطة وحروق السجائر والضمادات البادية للعيان من تأجيل ممارسات التعذيب المشيئة.

كدت أصاب بالجنون من هول ما شاهدت وعشت، غالباً ما كنت أردد في قرارة نفسي كلما عاودتني مشاهد التعذيب والإعدامات بدون محاكمة وصور عمليات الاستنطاق والحجز المطول: يا ليتني أستطيع أن أعيش بدون ذاكرة.. يا ليتني أستطيع أن أعيش بدون فظاعة ورعب.

عشت الأهوال في ذلك المركز إلى أن تصادف فراري من جحيم المعتقل مع احتفالات الجنود بتوديع عام مضى واستقبال عام آخر جديد؛ فقد استغللت انشغال الحراس والجنود بالرقص والعريضة، حيث كانت صناديق البيرة تملأ المكان. ومن ذلك التاريخ أضحى طيف تلك الحادثة يظهر في الذاكرة مع دخول كل رأس سنة جديدة. كنت أجري من غير هدف، ما كان يهمني آنذاك هو الابتعاد عن تلك الثكنة الملعونة التي تحولت إلى أكبر كابوس عشته في حياتي. وبعد أن خرجت إلى الطريق الرئيسي المحاذي لحدود البنايات لمحت حافلة نقل متوقفة، هرعت إليها، لما دخلت انغلق الباب وتحركت الحافلة تنهب الأرض نهبا.

مرت الحافلة في طريقها بالعديد من القرى، ولما عرف السائق هويتي بعد أن حكيت له كل ما حدث معي، امتنع وجهه واصفر من شدة الخوف من تبعات ذلك عليه، خصوصا وأنه ساعد خارج عن القانون على الفرار.

لا شك أن بوزيد بن جبار هو من وشى بنا، لأنه انفلت من قبضة جنود فرقة الكولونيل شاربونيي بأعجوبة تثير الكثير من الشكوك! ما شفى غليلي منه، هو بعد سنوات ليست بالطويلة من نيل الجزائر استقلالها، وُجد بوزيد غارقا في دمانه في مقهى شعبي، ما سمعته لاحقا أن شابا قرويا غرس خنجرا في صدره انتقاما لأخته التي اغتصبها إبان فترة الثورة. على كل حال نال هذا القدر جزاءه على كل ما اقترفته يده وان كان متأخرا، وتخلص المجتمع الوليد من بذرة فاسدة.

تلمسان مدينة جميلة وتشبه مدن المغرب إلى حد كبير، حتى اعتقدت من فرط ذلك أنها تكاد تكون متطابقة معها. لما وضعت ركائبي فيها أول مرة اندهشت من مبانيها العظيمة، ومساجدها العريقة وصوامعها الكبرى، وعمرانها الأندلسي، كما تملكني إحساس لا يمكن وصفه وأنا أرى هضبة لآلة سَتِّي فوق تلمسان، وكأنها تحرس المدينة من علٍ ولا تغفل لحظة واحدة عن حمايتها وترقب أي حركة فيها.

أحببت فيها كل شيء؛ شوارعها التي تذكرني بعبق تطوان وفاس، ولهجة ناسها الظرفاء، وطريقة حديثهم بوداعة ولباقتهم التي تشي بأصولهم الشريفة، وطبيعتها الساحرة والعيون المحاطة بها ولياليها المقمرة. والزيّ التقليدي للناس في الشوارع الذي لم يتأثر بالثياب الأوروبية المنتشرة حينذاك، وانتشار الفن والموسيقى والغناء كما الطرز والنسيج والحرف من نحت ونجارة وصناعة الأحذية وصباغة الجلود.

غالباً ما كنت أتتبه في حر الظهيرة القائل لذات الشيخ وهو يقود عربة كبيرة يجرها حصان، يمر دوماً من الطريق ذاتها، ومجتازاً البيوت نفسها لبييع بضاعته لمختلف العائلات القاطنة بها، وكلما مررت بالقرب من بيوت بعض العائلات التي تقيم في المدينة، إلا وكنت أستغرب كيف أنها كانت تحتفظ في أماكن أضافتها لبيوتها

واستحدثتها بشكل عشوائي ببعض الحيوانات من الخراف أو الماعز أو الأبقار أو البغال أو الأحصنة!

كما لاحظت أن هناك مدارس وأماكن للعبادة ومقابر خاصة بالفرنسيين والإسبانيين واليهود وغيرهم من الأجناس ومختلف الطوائف الأخرى.

أحببت شارع الجياد حيث كانت تقيم عائلة أخي ورفيقي في الكفاح عبد المجيد بن منصور، وكلما كان عبد المجيد يأخذني إلى ضريح سيدي عبد القادر الجيلاني، أو إلى سيدي بومدين، أو كلما قصدنا مسجد سيدي الحلوي أو سيدي الداودي، أو درب اليهود في وسط تلمسان؛ حيث استغربت وجود ذلك الكنيس المحاط بأسوار عالية في حيِّ قَبَّاسَة، والمقبرة اليهودية وبجوارها عين ماء، أخبرني عبد المجيد أن اليهود يعتبرون ماءها مقدسا، ويحجون إلى ضريح الحاخام الكبير، ووفق أساطيرهم إنه رأى في المنام أنه دخل مدينة تلمسان ممتطيا أسدا ومستخدما الثعبان لجاما.

وقد حدثني عبد المجيد مطولا عن ضريح الحاخام والطبيب اليهودي إفرايم آلان بن كاوا، القادم من إسبانيا هاربا من مجازر محاكم التفتيش، حيث كان أهل تلمسان يكرمون وفادة حجاجه من يهود العالم، ويحافظون على مزاراتهم. وقد روى لي عبد المجيد كذلك أن ابنة حاكم تلمسان السلطان لكحل أحمد المنصور أو يوسف بن تاشفين، كانت مصابة بمرض خطير استعصى على أطباء ذلك الزمان، وبعد أن شفيت نظير تمكن الحاخام أفرايم من علاجها، كافأه السلطان بمنحه حياً ليسكن فيه وبناء كنيس يهودي، مع الجالية اليهودية التي كانت متشردة قرب قصره. وهذا الحيّ هو الذي صار اسمه «درب اليهود» فيما بعد.

كل ذلك كان يذكرني بصديقي مومو حَيُّون، حين كنت أصحبه في زيارته لأضرحة الحاخامات في تطوان. وقد سبق وقصدت بمفردي زاوية سيدي الحاج الهبري، بعد أن سمعت عن كرامات هذا الرجل

الصالح وبركاته الربانية التي لا تعد ولا تحصى. فمع عبد المجيد كنا نتسلى الربوة التي تفضي بنا إلى القبة البيضاء لضريح لآلة سَتِّي، وقد كنا نجلب معنا الشاي بالنعناع والحلويات المغموسة في العسل، دوما ما نجد جمعا من الناس ملتفين حول الضريح وأغلبهم نسوة، للذكر ولطلب العافية والصحة والدعاء وإقامة النذور للأولاد والأزواج أو لبعض أفراد العائلة.

المنظر من القمة مدهش ولم أر له نظيرا من قبل، حيث كنت أستمتع بالبقاء في تلك الهضبة المباركة إلى غاية غروب الشمس، إذ كنا نغادرها أنا وعبد المجيد وجل الزوار. وفي طريق عودتنا كنا نستمتع بأغاني وأهازيج النسوة وزغرداتهن، وكنا نعود من رحلتنا تلك التي هي أشبه بالحج بشحنة كبيرة تملؤنا حتى تفيض منها أرواحنا بهجة، وكنا نشعر بنور يضيء دواخلنا وينفذ إلى أعماقنا المظلمة.

كنت أرجع إلى بختة في بيتنا الصغير الذي ساعدني عبد المجيد في الحصول عليه، وكلي فرح وحبور، كان هذا الرفيق هبة من السماء عوضتني عن جل خساراتي السابقة. إلى أن حلَّ ذاك اليوم الأسود؛ لما طرقت باب بيتي عبد العزيز زوج أخت بختة الصغرى، ليس من عاداته زيارتي، استغربت موعد زيارته خصوصا مع علمه بغياب بختة! كنت قد أخذتها قبل أسبوع إلى بيت والدها في مَغْنِيَّة، استجابة لرغبتها في الولادة هناك، لما جاءتها الأوجاع وشعرت أن موعد ولادتها قد اقترب. منذ سنوات لم يرزقنا الله بالأبناء، تأخرت بختة كثيرا في الإنجاب، ثم كل الأطفال الذين حبلت بهم فيما بعد سقطوا من رحمها قبل اكتمالهم كقطة لحم.

حالما فتحت له الباب الحديدي الخارجي، اقترب مني، انتبهت للعرق المتصبب من وجهه، لم يكن يومها الجو حارا، ولحظة سلم علي أحسست بعرقه البارد. ثم لفت نظري اصفرار وجهه كأنه فرغ من الدم، ولما لمحت مسحة الحزن التي اعترته وهو يتلأأ في الكلام، دب الرعب في داخلي، وشعرت بحدوث فاجعة ما.

لم يقو على التكلم، في البداية تلكاً، ثم خانته اللغة كأنه أبكم، وبعد تعسره ذاك اعتصر وحاول التنفس بملء صدره، في الأخير نطق كلمتين، لا غير، كلمتين هزتا كياني، وكانتا بمثابة زلزال عظيم هدم كل ما بنيته، وعصف بكل الأحلام والآمال التي عشت لأجلها، أرجعني إلى نقطة ما قبل الصفر، إلى الدرك الأسفل. كأنه بالكلمتين اللتين قذفني بهما دون سابق إنذار، قد هوى على رأسي بمطرقة حديدية على حين غرة، كان يمسك على مقبضها بكلتا يديه.

لم أتفوه بكلمة واحدة، عدا أنني نظرت إليه مرعوبا وحدثت عينايا جاحظتين كأنهما ستخرجان من محجريهما.
بعدئذ دخلت مسرعا إلى غرفتي لتغيير الملابس التي كنت أرتديها، لبست بأقصى سرعة ممكنة، ثم رافقته.

لما كان عبد العزيز يسرد عليّ تفاصيل كل ما جرى، أحسست على غير العادة أن الطريق من تلمسان إلى مغنية لا تكاد تنتهي! على الرغم من أنها لم تكن مزدحمة.

لما وصلنا، وحالما بدأنا نقرب بخطواتنا من البيت، صادفنا جمع كبير من سكان الحي جلّهم رجال كانوا يستندون بظهورهم إلى جدار البيت وجدران البيوت اللصيقة به، في حين تجاوزنا بعض الشيوخ، منهم من هم جالسون على كراسٍ خشبية وآخرون منبسطون على درجات البيت.

جميع من مررنا بهم كانت وجوههم كالحة وشاحبة، وملامحهم جامدة، ويبدو عليهم التأثر البالغ. حتى الأطفال الصغار الذين كان يمتلئ بهم الحيّ دائما، ولا تهدأ جلبتهم، ولا يتوقف صراخهم، لا أثر لهم قطّ، كأن الأرض انفتحت وابتلعتهم، وابتلعت معهم كلّ أشياءهم، وألعابهم، ولعبهم التي يتفننون في صناعتها بالأسلاك أو بالعلب المعدنية أو بالقارورات البلاستيكية؛ إذ توارت العربات المصنوعة من علب الطماطم والهريسة والمصبرات الأخرى، كما لم

يعد وجود للمراوح الهوائية المصنعة من قارورات الجافيل والغريزيل الأسود، ولم نعد نرى الدرجات النارية المصنوعة من أغلفة قارورات الليمونادة، وغيرها من المصنوعات الأخرى التي توارت عن الأنظار على غير العادة، ولم يعد العثور عليها ممكنا.

لم أكلم الخلق الذين مررت بهم، فلم أنطق بكلمة واحدة للتحية أو آتٍ بحركة تسليم قط، حتى من سبق وكانت بيننا معرفة لما أقمت بالقرب من هذا الحي في ما مضى، عدا أنني كنت أنظر إليهم بطرف بصري، فما كان يهمني لحظتها وأتحرق إليه هو أن أحث الخطى صوب البيت كأنني كنت أمشي على الجمر.

كان الصمت في الخارج ثقيلًا جدًا، لم أعهده من قبل، صمت مختلف ابتلع كل صخب الأطفال وبكاءهم وصرخهم وعراكمهم وجلبتهم، حتى مواء القطط المذعورة من شيطنة الصغار توقف؛ صمت التَّهَمَ كذلك الضجيج الحاد المنبعث من ورشتي النجارة والحدادة اللتين لا تفصل بين موقعيهما سوى أمتار محدودة في الطرف الآخر من الحي. حتى بعض من هؤلاء أو أولئك من أخذوا يتكلمون، كانت كلماتهم مكتومة لا يسمع منها حرف واحد، لا ترى إلا شفاههم وهي تتحرك دون أصوات تخرج من حناجرهم، بدو لي كأنهم يتهامسون.

وأخذنا نقرب شيئًا فشيئًا من باب البيت، وحالما فتح لنا عمي أحמידة الباب، نظر الشيخ في عيني الجامدتين بأسى كبير، ثم احتضني باكيا، أحسست بزفراته وشهقاته المكتومة، أما أنا فكنت ثابتا كشجرة صنوبر أو كهرم شامخ، لم أبك، ولم تدمع عيناى كأنني قطعة جليد أخرجت للتو من ثلاجة تجميد!

رافقتني أخت بختة الصغرى وعمتها زعرة إلى الغرفة الملاصقة للحمام وعيناها حمران ورأسهما مطرقان وآثار الدموع ما زالت بادية على وجنتيهما.

عندما دلفت باب الغرفة لم أستطع أن أُمَيِّز وسط عتمة ذاتي المتشظية وضباب روحي المنكسرة جُلّ الوجوه لَمَّا التفتت نحوِي. وسرت كأعمى حقيقي صوب ذاك الجسد الهامد، وأنا أظأ الزليج كي أصل إليها، كنت كمن يعبر حقل ألغام، لأنني كنت مدركا إنني ماض نحو حتفي. وبينما كنت كذلك شعرت أن كل شيء من حولي يتهاوى، وأن أحلامي تبعثرت، ومسراتي عابرة لا محال، وكل أفرحي الصغيرة استحالت إلى سراب.

اقتربت من جسد زوجتي بختة الممدود في وسط الغرفة، كان وجهها أبيض وعيناها مغمضتين، بدت لي كأنها نائمة، مطمئنة، وراضية. طلبت بأدب جم وصوت خفيض متحشرج ممن كانوا محيطين بجسدها المستريح أن يتركونا لوحدا، من حقي أن أبقى معها بمفردي، أردت أن أودعها على طريقي؛ لما انفض الجمع وخلت الغرفة رفعها قليلا، احتضنتها، ثم قبلتها على جبهتها، استسلمت لنوبة بكاء طويل اجتاحتني دون أن يكون بوسعي كبجها، بللت دموعي المنهمرة كنه من مقلتي وجهها ورقبتها.

لم تأبه لدموعي تلك، كانت نائمة كملاك، أو غائبة عن الوعي. لم أحاول إيقافها، بقيت متمسرا في مكاني، جاثيا على ركبتني على زليج أرضية الغرفة، كنت منهكا ويائسا، يهدني الألم وينخني الوجع، بقي وجهي مصوبا إلى جسدها الممدد، وعيناي لم تفارقا مَحَيَّاهَا؛ بدت لي جفونها، ورموشها، وحاجباها مجرد أشياء جامدة خالية من التعبير والدلالة، ولمَّا كنت أنظر في ثقبتي أذنيها حيث كانت تتدلى أقراطها، حلقتان على شكل سنبل في كل منهما مجموعة جواهر، حدقت في رقبتها التي كانت تطوقها قلاذتها الذهبية التي أهدتها لها خالتها مباركة. حَوَّلْتُ بصري إلى يدها اليسرى، تلمست أصابعها وبالذات الإصبع الذي كانت تضع فيه خاتم زواجنا.

عاودت احتضانها، كانت جامدة كدمية، شددت عليها أكثر، كانت يداي مشبوكتين خلف ظهرها، وأنا أتفحص ملامح وجهها علها تستيقظ من غفوتها، أو تستفيق.

لما يئست، أرجعتها إلى الفراش، كان جسدها ممددا، لم تشعر بوجودي، ولم تتحرك قيد أنملة.

كنت أبتعد بخطواتي عنها وعيني مصوبتين في جسدها المسجى، كانت خيوط النور المتسربة عبر نصف النافذة المفتوح بفعل تقاطع أشعة الشمس مع أوراق دالية العنب الوارفة قد شكلت هالات نورانية مشرقة على مَحْيَاها. حتى تملكنتني حالة غريبة واعترتني قشعريرة سرت في جسدي كله كالكهرباء، وكانت أنفاسي منقبضة تتقاطع مع ارتجافي ودموعي الغزيرة التي لم تتوقف عن الانهمار كمطر شتوي في ليلة طويلة.

انتابني لحظتها رغبة غريبة في أن أشعل سيجارة لنفسي بهدوء كبير، وأنفخ باستمتاع واشتهاء منقطع النظير سحب متتالية من الدخان تخرج من رثتي، وتخرج برفقتها كل الأوجاع والآلام التي تثقل صدري. لم أستطع أن أتخيل أن يأتي يوم وأجدني أمام هذا الخطب، كنت أتخيلها دائما تنضح بالحياة قبل هذه اللحظة، تبا لهذه الدنيا الكلبة التي أخذتها مني، ليتني كنت أستطيع ركلها من قفاها، من عجيزتها القذرة الهرمة، من إلتيتها المتهدلتين. ليتني أستطيع أن أصفعها على وجهها القبيح حتى تنخلع أسنانها السوداء من شدة الصفعة. وتحركت إلى الخلف وكأنني على وشك القيام بفعل الركل أو الصفع، وكأن ذلك كان حقيقيا.

كنت كمجنون لأدني استسلمت لحظتها لهلاوسي، وصدقت خيالاتي لدرجة اليقين! كنت واثقا من أن جل ما تخيلته حقيقيا، كنت مستعدا لأن أقسم. كما رجل فقد عقله، وظلّ جاثما في مفترق طرق، بين طريق حقيقية وطريق رسمها في ذهنه، نسجتها أوهامه، طريق لا توجد إلا في مخيلته. كنت في قرارة نفسي ناقما بشدة على هذه الدنيا الكلبة التي لم يجرؤ أحد من قبل أبدا على محاولة ركلها برأس حذائه، أو صفعها بكف يده اليمنى بكل ما أوتي من جهد أو

ما أدخره من قوة لمثل هذا الظرف. تبا لها، كنت أراها ترقبني بطرف بصرها وهي مبتسمة وتطلق ضحكات استهزاء شامتة بمصابي.

لا أدري ما حدث لي، على الأغلب فعلت بي ما أرادت، ذلك لأنّ جلّ قدراتي مجتمعة لا تساوي شيئاً أمام سطوتها وجبروتها، غير أنني لم أنحن لها، ولم أخفض رأسي مذلة واستسلاماً. لم أكن أشبه تلك السلحفاة الضعيفة التي تخفي كامل أعضائها داخل قوقعتها الخشبية الصلبة أول ما تواجه خطراً محدقاً، أو خصماً ذا سطوة وجبروت لا قبل لها بهما. ربما أنني كنت أعتقد أنني خسرت كل شيء، وليس لدي المزيد كي أخسره. وصار ما في داخلي يمنحني قدرة رهيبة على مواجهة ومقاومة أي كان دون أن أبالي، ولم أعد في حقيقة الأمر أشعر بذات الخوف الذي كان ينتابني في السنين المنصرمة من تصاريح الدهر، ولم أعد أهتم بما سيكون أو لا يكون في غد يكون أو ما يكون. فبالأمس كان يثير خوفاً مجرد التفكير في ذلك الأمر، وكنت أصاب بذعر شديد كلما جالت في رأسي تلك الأفكار.

حينما هممت بمغادرة الغرفة لم أعرف كم مرّ من الوقت وأنا هنا أمام جسدها، عدا أنني كنت موقناً أن كل شيء سيتغير منذ اللحظة التي سأخرج فيها من باب هذه الغرفة. عند باب الغرفة مسحت بكفي على عيني، واستعدت رباطة جأشي، لما خرجت وقع نظري على عمي أحميدة مسنداً ظهره إلى جدار الحوش، وصراخ الندابات يملأ المكان.

أخذني عمي أحميدة إلى غرفة أخرى، حيث ينام طفلان صغيران ولداً حديثاً، من منظرهما عرفت أنهما طفلاي التوأم، هما خرجا من ظلام بطن بخته إلى نور الحياة، وبخته غادرت نور الدنيا إلى ظلمة القبر. أسميت الذكر على بركة الله عبد اللطيف، وتوأمه الأنثى أسميتها بفضل من الله زكية.

طيلة الأسابيع الأولى بعيد وفاة بخته كان عليّ أن أتحدى بالصبر، في تلك الأيام القاسية لم يكن في مقدوري أن أظهار بغير ما كان

يحتدم في داخلي، فقد كانت الأحزان والهموم أكثر وطأة عليّ من أي شيء آخر، ولم يعد جسدي يقوى على مقاومتها أو يطاوعني على فعل الكثير من الأشياء والواجبات. ذاب اللحم الذي كان يكسو عظامي، واستحالت إلى هيكل يكاد ينقض، ومن شدة نحافتي بدوت غارقا في أثواب فضفاضة.

كان الناس في تلك الأيام الطويلة والقاسية محيطين بي، أما أنا فقد كنت مذعورا وغير آبه بأحد، كطفل صحا من غفوته ولم يجد أمه التي كانت بجنبه تهدده قبل أن يغفو، عدا أنه تمكن من رؤية وجوه شاحبة تحيط به من كل جانب، وعبثا كانت أغلب تلك الوجوه تتصنع حركات بائسة كي تضيي بعضا من المرح والبهجة.

كل الأشياء التي كنت اعتقدها ثابتة كرسوخ الصخر، أضحت كقشة في مهب الريح! كل ما كنت أصبو إليه طوال سنين، وكنت على بعد خطوة أو خطوتين منه، حالت تصارييف الدهر الظالمة دونه، والأسوأ من كل هذا وذاك أن لا خيار أمامي، وليس بوسعي سوى الانقياد أو اليأس المطبق. في هذا العالم جُلّ الأشياء ليست على حقيقتها، ربما ستكون هناك حقيقة ما في عالم آخر، لكن إطلاقا ليست في هذا العالم الزئبقي المخادع، الذي كلما اعتقدنا أننا أمسكنا بأطرافه تفتت وأنشطر متلاشيا في العدم، يوهمنا دوما باستدامة ما نملك وحالما نطمئن ونشعر بأننا في مأمن، ينقلب علينا شر انقلاب.

لم يكن بمقدوري أن أتصور ما سيحل بجسد بختة لما يوارى الثرى، لا أستطيع تخيل الديدان تعبت بهذا الجسد الغضّ، تنخره، وتصلو وتجول في أنفاقه المظلمة، ثم تطل دون خشية من الثقوب والفجوات المحفورة، حيث تنبعث رائحة خانقة وكرهية. لم يكن باستطاعتي تصور جسدها يستحيل إلى عفن، ثم إلى كومة عظام.

لما انقضت الأيام الأولى، حيث كنت غارقا بأمور الدفن ومشغولا بالعزاء وترتيباته، أخذ يغزوني مدٌّ من الكآبة لا قبل لي به، كان أشبه بجيش من النمل الأحمر، أتى كي ينهي ما بدأتها الحياة لما أخرجتني

عاريا إلى جحيمها. فقدت الرغبة في كل شيء. من شدة كآبتي كنت
واهنا، ومرتخيا، والأرض تدور بي، وكنت أشعر بالديدان تلتهمني من
الداخل كأنني ميت.

دوما ما كنت في قرارة نفسي لا أومن بصداقات دائمة ومتمينة، أعتقد أن الأمر يرجع إلى خيبيتي الكبيرة في الكثير ممن كنت أعتبرهم أعز وأقرب الأصدقاء؛ أين هو الأمين حمودان الإدريسي؟ ولن أنس قط كيف طعنني محمد لمبريطو. حتى مومو حيون لمّا تزوّج وأستقر به المقام بكندا، تجاهلني، ولم تعد رسائله تصلني. ما فعله بي من كنت أعتقد أنهم أصدقائي في تطوان، ولم تساورني أدنى شكوك في أي يوم من الأيام بأنهم سيخذلونني، جعلني أكفر بشيء اسمه صداقة، وصنع مني في فترة ما كائنا منعزلا يفضل الوحدة، ويميل إلى الاختلاء بنفسه على أن يجالس الناس ويخالطهم، خصوصا قُبَيْلَ مغادرتي تطوان، وكذلك في بداية فترة التحاقني بالجزائر.

إن كان لي صديق في الأعوام التي أقمت فيها بين مغنية وتلمسان، فلم يكن سوى عبد المجيد بن منصور. فمئذ تلك اللحظة التي عرفته فيها، أخبرني حدسي أن هذا الرجل مختلف، على الرغم من أنني كنت بالغ التحفظ من الأناص الذين لا أعرفهم، لكن مع ما حدث في تلك اللحظة التي صافحني فيها أول ما التقينا في الجبل، جعلني أوقن بما لا يدع مجالاً للشك بأنه من طينة أخرى مختلفة عن جل من عرفت من أصدقاء.

كان عبد المجيد قبل أن يلتحق بمجموعتنا ضمن فرقة الثوار المكلفة بتهرب الأسلحة من المغرب إلى الجزائر، إذ ذاك كانت فرقته تتنقل سرا عبر مغارة بني عاد لنقل السلاح ما بين حدود البلدين، ولما اكتشف الاستعمار الفرنسي الأمر قام بإغلاق الجزء الأول من المغارة باستعمال ستين مترا مكعبا من الإسمنت المسلح، وقد أفضى هذا التصرف إلى انضمام عبد المجيد إلينا. وفي عام 1965 إذا لم تخني الذاكرة، زرت المغارة لأول مرة بصحبة عبد المجيد، وانددهشت بصفاء المكان في أعلى جبال عين فزة، وبتراقص الحمام وهديله المتناغم، كما سليني منظر الصواعد والنوازل والصور والمجسمات ذات الأشكال المختلفة التي نحتتها الطبيعة على الصخور الكلسية الناصعة البياض، ورجع صدى خطواتنا وأصواتنا لما كنا نجتاز مسالكها الضيقة أو نتجول بأبصارنا في كنوز قاعاتها الفسيحة، والجو المنعش داخل المغارة المتسعة الأرجاء.

وظل عبد المجيد طيلة ذلك اليوم يحدثني بانهار وزهو عن أنها ثاني مغارة طبيعية في العالم، وأن تاريخها يعود إلى قرنين قبل الميلاد، وعن طولها الذي يتجاوز مائة وخمسة وأربعين كيلومترا، بدايتها التي تمتد من ها هنا، حيث كنا نقف لحظتها على مرتفع هضبة عين فزة، وتنتهي في منطقة تقع بشرق المغرب تابعة لمدينة وجدة تسمى سيدي يحيى. وروى لي يومها عن قصص وحكايات الأمازيغ الذين اكتشفوها قبل آلاف السنين، وكيف استوطنوا فيها واتخذوها ملجأ لهم، يضمن لهم الحصانة والأمن والأمان من الأعداء وهجمات الوافدين الجدد، كما قصَّ عليَّ بعضا من أساطير قوم بني عاد الرُّحَّل، وهوسهم في التنقل والارتحال صوب كل الأمكنة والجهات القصية، وكيف كان يغلبهم حنينهم مهما ابتعدوا عن المكان، ويدفعهم للعودة باستمرار إلى المغارة، وهكذا ديدنهم، هم دوما في حل وترحال، وفي غدو ورواح، وحيثما ذهبوا هم حتما آيون. وكيف أن المؤرخ والمفكر ابن خلدون اختارها كمستقر له، وحدثني عن

إلهامها لشعراء وكتاب كبار عبر العصور؛ اتخذوها كخلوة لهم على غرار ابن خميس التلمساني في عهد الزيانيين، وابن خفاجة الأندلسي، وابن أبي زرع وغير ذلك من الأسماء الأخرى التي سقطت من ثقوب ذاكرتي. وقد عادت بي ذاكرتي المثقوبة إلى الأيام التي كنت أجلس فيها مستغرقا إلى حضرة السيدة ناتاليا بيرتوشي زوجة السيد مانويل، ومنتشيا بطريقة عزفها على البيانو، لما احتك العود الذي كان بين أصابع يدي على سبيل الصدفة مع جدار أبيض يشبه الرخام في أحد أركان مغارة بني عاد، وأصدر نغما بديعا أخذني شيء يشبه الرعدة انتفض لها قلبي، واعترت جسدي لحظتها حالة من القشعريرة انتبه لها عبد المجيد، ثم حدق فيّ مبديا شيئا من الحيرة والتساؤل دون أن ينبس بكلمة. فعلى الرغم من العلاقة المتينة الروابط التي نشأت بيني وبين قدور الوئاس لاحقاً، لكن علاقتي بعبد المجيد شيء آخر يعسر مقارنتها مع أي علاقة صداقة أخرى مهما كانت عراها وثيقة.

أذكر إنني التقيت بسي قدور أول مرة في مقهى الرمانة المحاذي لدرب سيدي حامد وسط مدينة تلمسان، حيث كان هذا المقهى مقصدا للمناضلين والمثقفين، وعلى رأسهم الأديب المعروف محمد ديب. أذكر إن قدور يومها كان يعاتب النادل على سهوه في وضع السكر في فنجان قهوته، ثم رأيته يتفل في قهوته غاضبا قبل أن يرفع ذراعه اليسرى بكل ما أوتي من قوة ويضرب الفنجان بكف يده.

كان كل رواد المقهى مثبتين أبصارهم في الفنجان وصحنه وهما يتطيران من فوق سطح الطاولة ثم ينكسران بعد ارتطامهما ببلاط أرضية المقهى، وهكذا انتشرت بقايا الزجاج المكسور على الأرضية أسفل الطاولة. كان الاستغراب باديا على الوجوه لِمَا يعرفه المقهى من جو هادئ ومؤنس. ولم يسعف الحظ كل من كانوا يجلسون معه حول الطاولة في مسك ذراعه، فقد كانت حركته مفاجئة وسريعة.

كنت بدوري مع خلق الله أنظر إلى الرجل بدهشة وفضول! حتى قادني عبد المجيد إلى تلك الطاولة مكرها؛ حاولت التراجع خطوات

إلى الوراء، صدني من الخلف، أردت أن أغير مساره نحو طاولة أخرى منعزلة كانت غير مشغولة وبعيدة عن شجرة الرمان التي تتوسط فناء المقهى، إلا أنه طاف بي بين الطاولات، ثم أخرجني بحركة من رأسه، لم يعد ممكنا لي سوى الجلوس على كرسي من بين الكرسيين الشاغرين حول الطاولة.

لسوء الحظ قدمني لأولئك الرجال الأربعة، في حقيقة الأمر كانوا أصدقاءه، وكنت حينذاك مضطربا وعاجزا عن إيجاد مخرج يخلصني منهم، عدا أنني بقيت صامتا ومتحفظا من إبداء أي رأي طيلة الجلسة. إذ ظهر سي قدور يومها ببذلة أوروبية على مقاسه، كان لابسا بنطلونا وسترة أسودين، وقميصا ذا لون أبيض، وياقته نظيفة ومكوية بعناية، تطل من يده ساعة معدنية يظهر أنها ذات علامة سويسرية؛ فقد خبرت جودة الساعات لما كنت طفلا متنقلا بين البواخر والسفن البحرية في موانئ المغرب، أستبدل علب السجائر مع البحارة لما أتسلل إلى بواخريهم الراسية في غفلة من عيون الحراس. وفوق طاولته كانت تقبع قبة البيري الملطخة بقطرات القهوة المتطايرة والمبللة جراء كأس الماء المنقلب على سطح الطاولة. بذلك الملبس كان الرجل يبدو أنيقا وذا ذائقة لا يمكن عدم الانتباه لها، وقد غطى سلوكه الغريب ومنظره الأنيق على رفاقه الثلاثة الذين كانوا يشاركونه الطاولة ذاتها، كما يغطي المغني المنفرد بحضوره الطاغي على رفاقه الذين يكررون لازمة الأغنية من خلفه.

لكن على الرغم من سلوكه الشائن، فقد كان سي قدور طافحا بالحياة محبا للبهجة والفرح بمتعها، أو هكذا بدا لي من خلال مخالطتي إياه بعد أن توطدت علاقتنا. ولم اعرف إن كان سلوكه ذاك وطبعه المتقلب بسبب ما شاهده من أهوال إبان الثورة، وما تعرض له من تعذيب واستنطاق في مراكز الشرطة والاعتقال في فرنسا، أم أن الأمر مرده إلى مزاج أو طبع ورثه من أسرته أو من محيطه؟ ولقد روى لي فيما بعد عن احتجازه وظروف اعتقاله مع المئات من

مناضلي جبهة التحرير الوطني في فرنسا، إذ ذاك كان نزيبا في جناح المحكومين بالإعدام في سجن فرين، ليتم نقله فيما بعد إلى معتقل لاسُونْتِيَه. وبعد أربعة أسابيع من تحويله وبالضبط في الفترة التي كانت بين شهري جوان وجويلية من عام 1959، دخل مع المعتقلين المنتمين لجبهة التحرير في إضراب جماعي عن الطعام.

وفي خضم روايته عن حيثيات اعتقاله أثنى على سيدة فرنسية تدعى سيمون فاي، كانت قد تولت حديثا منصب مديرة إدارة السجون التابعة لوزارة العدل الفرنسية؛ فقد حدثني عن دورها في تحسين ظروف اعتقالهم، وفوق كل ذلك الدور المهم الذي لعبته في تعطيل حكم الإعدام الصادر في حقه وحق العشرات من المعتقلين الآخرين، بعد أن قبلت مجموعة الطعون التي قدمها فريق المحامين الموكل من قبل حزب جبهة التحرير الوطني للدفاع عن المعتقلين. إلى غاية أن استفاد قبيل استقلال الجزائر عام 1962 من تجميد حكم الإعدام بفضل اتفاقيات إيفيان بين جبهة التحرير الوطني والحكومة الفرنسية. فبفضل تلك المرأة كما أكد لي، انتفع الآلاف من المعتقلين الجزائريين آنذاك في السجون الفرنسية من تحسين أوضاعهم وظروفهم المعيشية والصحية، كما أضحى بإمكانهم الاستفادة من حصص تعليمية باللغتين العربية والفرنسية. بالإضافة إلى رفع الحظر عن دخول الصحف والكتب إلى نزلاء السجون، التي كانت بالنسبة له بمثابة الرفيق والأنيس الذي خفف عنه بدرجة كبيرة وطأة المعتقل كما سمعت منه. وعلى الرغم من قساوة الاستنطاق والتعذيب والاعتقال، وفداحة ما عاشه قدور في سجن فرين ولاسُونْتِيَه على التوالي، وعلى الرغم من المعاناة وعدم الاعتراف بهم كسجناء سياسيين، وكأبة وصفهم كمتمردين أو خارجين عن القانون، هذا التصنيف حرّمهم من أبسط الحقوق كما سَلَطَ عليهم سجانهم ليذيقوهم أشد الويلات، على الرغم من ذلك كله وأشياء أخرى لم يرغب في أن يقصصها عليّ أو لم تكن الفرص مواتية لها.

ظلت ذكرى سيمون فاي حاضرة لدى قدور بقوة، وظلّ منبها بشجاعتها وإنسانيتها، ولم ينس إطلاقا مواقفها المشرفة في حقه وحق المساجين السياسيين الجزائريين، وكان يتحدث عنها بشيء من الزهو، وكانت في نظره امرأة مختلفة جدا عن بقية المسؤولين الفرنسيين الذين لم يقبلوا بالتفاوض ولا حتى النظر في قائمة مطالب المعتقلين، فقد تحدّث بمفردها تعنت رئيس الوزراء الفرنسي الراض لأي تفاوض مع المضربين عن الطعام. ولشدة ما أعجب بها كان يتحدث عنها دوما، بمناسبة أو غير مناسبة، وغالبا ما كان يكرر لي أشياء وقصصا عنها سبق وأن رواها لي مرارا. ولم أكن أرغب في تنبيهه أو إفساد متعته، كنت أتركه دوما يستفيض في الحكى دون أن أقطع عليه تسلسل سرده. أتركه يأخذ راحته ريثما يقرر التوقف بمحض إرادته.

في معظم الأحيان كان يظهر لي كأنه يمتلك قلب طفل صغير خاليا من الأحقاد والضغائن. فقد كان على الرغم من شدته ومزاجه الحاد حنونا ومرهف الحس وبالغ الرقة، لا سيما وإنني وفقت على تعاطفه ومساندته للعديد ممن يعرف ومن لا يعرف على حد سواء، خصوصا أولئك الذين انقلبت عليهم الحياة، أو لم تنصفهم الظروف في العيش حياة كريمة. فخلف عبوسه يقبع إنسان كريم ومتعاون إلى أبعد الحدود المتوقعة أو الممكنة، أحيانا كنت أستغرب من قدرته على العطاء دون انتظار رد الجميل أو مقابل لخدماته من أي شخص قدم له المساعدة أو مدّ له يد العون. وكان عبد المجيد بن منصور يقول إن: «قدور الوناس خيار الناس»، وغالبا ما كان يردد على مسامعي بأنه «رجل من ذهب، وصدافته لا تعوض بثمن».

وهكذا لم يحدث وأن اشتكى عبد المجيد من قدور، أو حدثت بينهما أية مشاكل لا صغيرة ولا كبيرة. فقد كان معجبا به، وبنضاله ودوره في مقاومة الاستعمار الفرنسي في عقر داره. وكان ينفعل ويتشنج كلما جاءت سيرة سي قدور بسوء على لسان أحدهم، ومن

يجرؤ على الانتقاص من سيرة الرجل فيكون حينئذ خصما له. وكان بعض الرفاق يتهامون في خلواتهم عما سمعوه عن تردد سي قدور لما كان مقيما بمدينة سيدي بلعباس على فيلاج اللفت السيئ الصيت، وإدمانه على مضاجعة بائعات الهوى ومعاقرة الخمرة هناك، بينما أنداده الرجال يحملون السلاح في ميدان الشرف. ولم يكن لأحد منهم أن يجرؤ على الحديث عن الأمر في العلن، لسببين؛ أولهما أنه لم يكن لأحد أن يجرؤ على ذكر اسم ذلك المكان «فيلاج اللفت» على لسانه، فالأمر كان محرما اجتماعيا والنطق به كان أقدر من النطق ببذاءة وسط فناء جامع يغص بالمصلين في وقت صلاة الجمعة. والآخر خوفا من مزاج سي قدور الحاد وانقلابه عليهم شر منقلب.

وفي حقيقة الأمر كما أوضح لي عبد المجيد، أن قدور كان يتظاهر بالتردد على فيلاج اللفت، لجمع المعلومات من المومسات عن ضباط وجنود الجيش الفرنسي المترددين عن المكان، إلى حين تمكن من الإجهاز على ثلاثة ضباط ذوي رتب مهمة في الجيش الفرنسي دفعة واحدة، وسلبهم الأسلحة التي كانت بحوزتهم لحظتها، كانت قد استدرجتهم بائعة هوى تدعى ساسية الروجية إلى مخدعها. ولم يمض على تلك العملية ثلاثة أشهر حتى تمَّ تدبير عملية تهريبه إلى فرنسا، بعد أن جهزت له جبهة التحرير الوطني جوازات سفر مغربية. وقد قصَّ عليَّ سي قدور أنهم استجابة لأوامر تلقوها من جبهة التحرير الوطني تحثهم على الانتقام من العمليات التي قام بموجبها الجيش الفرنسي بإحراق الغابات في الجزائر بالنابالم، لمحاصرة المجاهدين في جيش التحرير الوطني والضغط عليهم للخروج من تلك الغابات الكثيفة. واستجابة لتلك الأوامر تلقى رفقة مجموعة من العناصر المقيمة بفرنسا تدريبات مكثفة في استخدام القنابل والعبوات المتفجرة عن بعد.

وبالضبط في ليلة ليلاء من ليالي شهر أوت 1958 التحق بفيلا في ضواحي مرسيليا، وفي صبيحة اليوم التالي غادرها رفقة مجموعة

من العناصر على متن سيارتين مزودين بالقنابل إلى مجموعة من الأهداف المقررة. وأهم هدف في مهمتهم تلك كان خزان موريبان بالضاحية الشمالية لمرسيليا التي لا تبعد كثيرا عن ميناء المدينة، والذي كان آنذاك يعتبر أكبر خزان للوقود في جنوب شرق فرنسا. كانوا يومها مرهقين جدا، وفي كل خطوة كانوا يخطونها كانت وطأة الخوف تتضاعف معها، وزاد في إرباكهم حرارة الجو ونسبة الرطوبة التي يصعب احتمالها. رغم كل ذلك دخل مع المجموعة إلى الأمكنة المحددة، وساعد في وضع العبوات في الأهداف المرسومة بدقة؛ وأداروا الأسلاك ثم غادروا المكان دون أن يلاحظهم أحد كأنهم كانوا كأطياف أو أشباح لا ترى.

وبالموازاة مع تلك العملية قام فريق آخر من رفاقه بإشعال مجموعة من الحرائق في غابات إيستيرال، من أجل المناورة وتشتيت انتباه الشرطة وإبعاد رجال المطافئ عن المنطقة المقصودة والمستهدفة بالتفجيرات. وفي خضم سرده هذه الحكاية ذكر العديد من أسماء رفاقه في عملية مرسيليا، ومن بينهم حسان وموح ومحند؛ استعدت رسائل صديقي مومو حيون، وما رواه لي عن شركائه الجزائريين في ذلك البيت المتهالك بمرسيليا، أيعقل أن تلعب المصادفة دورا خرافيا، ويكون هؤلاء الثلاثة من رفاق سي قدور هم ذاتهم من كانوا شركاء مومو في السكن؟ صراحة لم أثر معه الأمر، عدا أنني كنت أصغي إليه وهو يروي لي المشاهد التي عاشها، فكنت كأني أراها ماثلة أمامي بكل حيثياتها وتفصيلها.

وبداية من ذاك اليوم الذي التقيت فيه بسي قدور أول مرة ولدت بيننا صداقة كان لها أثرها الكبير على قلبي، ودامت زمتا طويلا، لو لا مغادرتي تلمسان نحو الشرق الجزائري، إلى مدينة عنابة، لما كانت تلك اللقاءات تنقطع إطلاقا.

إذ ذاك انتقلت من أقصى الغرب الجزائري إلى أقصى الشرق. ولو لم تكن وساطة سي قدور لي لدى الأمين العام لولاية عنابة حينذاك،

التي يسرت لي الحصول على سكن اجتماعي في دائرة البوني لما تمكنت من الإقامة في عناية.

سافرت إلى عناية بعد التضييق على العائلات المغربية في منتصف السبعينيات، كانت أغلبها مقيمة في مدن الغرب الجزائري؛ إذ بعد التوتر الحاصل وقتذاك بين المغرب والجزائر بسبب قضية الصحراء، قرر الحسن الثاني مصادرة ممتلكات الجزائريين المقيمين بالمغرب، في حين قرر الرئيس هواري بومدين طرد العائلات المغربية المقيمة بالجزائر.

أعرف إنني بعيد كل البعد عن هذا الصراع، ولست معنيا بذلك القرار، فأنا لم أبخل بأغلى ما أملك، فقد خاطرت بحياتي ورفعت السلاح من أجل تحرير هذا البلد. لكن لما رأيت بأمر عيني تشرد وتشتت الكثير من العائلات في تلمسان وغيرها من مدن الغرب الجزائري، الزوج الجزائري تطرد زوجته المغربية، والزوجة الجزائرية يطرد زوجها المغربي، ومصير الأولاد نحو المجهول، إما يبقون كلهم في الجزائر مع أحد الوالدين، أو يغادرون جميعا نحو المغرب مع الولي الآخر، أو ينقسمون بين والديهم، نصف في الجزائر والنصف الثاني بالمغرب، وتضيع بذلك أسر وعائلات بأكملها. والأمر ذاته ينطبق على الجزائريين في المغرب! وباتت أراضي كلا البلدين على اتساعها وشساعتها أضيق من خرم الإبرة.

ما كان عليّ إلا الرحيل من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق حتى أبقى بعيدا عن تدايمات هذا الصراع، وأبدأ حياة جديدة هناك، لا أحد يعرف هويتي. وقد اقترح علي سي قدور عناية بحكم أنه ينحدر من منطقة الذرعان التابعة آنذاك لمدينة عناية.

هذا الرجل كان شعر وجهه دوما حليقا، وكانت له طريقة خاصة في المشي تميزه عن غيره، كنت أعرفه بها من أمتار بعيدة حالما يلوح لي في أفق الشارع. أما عيناه فكان لهما بريق خاص أشبه ببريق الأحجار الكريمة أو الزجاج لما تنعكس عليه أشعة الشمس.

بعد معاشرتي لهم صرت مداوما على التردد على مقهى الرمانة، وكنت أنتظر بشغف أن ينضم إليّ سي قدور ورفاقه. حالما كنا نراه يُقْبِلُ من جهة درب سيدي حامد كنا نتوقف عن الحديث، ولما كان يجلس إلينا غالبا ما كنا ننسى موضوع حديثنا السابق ولا نتذكر منه شيئا، مع حضور سي قدور يضيع خيط كل حديث كان قبل وصوله، فقد كان محور التركيز ينتقل تلقائيا إليه.

لا شك أن نظراتنا المنتقلة في تلك اللحظة إلى وجهه الحاد الأنف، كانت لا تخفي ترقبنا بشغف عما ستفضي عنه جعبته، وعيوننا تتبع حركات وسكنات شفطي سي قدور، وكان يغمرنا الانفعال من المشاهد التي تولد من كلماته المرصوفة بعناية ودون تكلف والمشوقة.

من يرى دهشتنا وشدة تركيزنا يبدو له أننا نُؤمنا مغناطيسيا، أو أننا قد أصبنا بوباء غريب تنقل إلينا عن طريق العدوى. فلم يسبق وأن جالسنا وهو خالي الوفاض، كما لم يحدث وأن نهض واقفا عن مجمعنا قبل أن يشفي غليلنا بشجون حديثه. وهذا ما كان الأهم بالنسبة لي ولمن كان يجلس إلى طاولتنا أو قريبا منها.

كنا شغوفين بما سيرويه لنا لما يعود بذاكرته إلى تلك الشوارع والأحياء والأمكنة الواعدة، ويحدثنا عما عاشه فيها ويقص علينا ذكرياته مع أناس وأجناس عرفهم هناك. فكانت الساعات التي كنا نقضيها في مقهى الرمانة كأنها هنيهات.

بصراحة كنت مدمنا على تلك اللقاءات التي تجمعني بهم بين طاولاته، والاستمتاع بالجلوس بصحبتهم في هذا الفضاء الهادئ والمكان الجميل والمريح؛ حيث كنا نحتسي القهوة أو الشاي ونقضي الساعات بطولها نتحاور ونناقش قضايا المجتمع وانشغالات الناس ومعاناتهم دون موانع أو محرمات أو كلل أو ملل. وكل يوم كان يمضي بدون أن أجتمع بهم، كنت أشعر به كأنه غير مكتمل، وأن هناك حاجة ملحة غير مشبعة تدفعني للشعور بنقص ما!

فلما فقدت بخته، حدث انقلاب جوهري وتحول عميق في حياتي رأساً على عقب، فقد كانت الأيام التي تلت موتها مؤلمة وقاسية وطويلة، وقد كان ترددي على المقهى يمنحني بعض السلوى. وكما هو الحال، دوماً ما كنت ألجأ إلى مقهى الرمان، كي أرمي همومي خلف ظهري، وأخرج من حالة اليأس التي وضعتني فيها وحدتي.

لكن بعد مضي سنوات من الدعة والاطمئنان، كل شيء تغير فجأة مع ترحيل آلاف المغريين من تلمسان ومستغانم ووههران وسيدي بلعباس وغيرها من المدن الأخرى، من دون انتظار أو تمهل، وعقب قرارات سياسية مستعجلة وغير مدروسة العواقب تمت عملية طرد وترحيل كل فرد مغربي مقيم في التراب الجزائري، والأمر ذاته بالنسبة للجزائريين المقيمين بالمغرب حيث رحلوا من ديارهم وصودرت ممتلكاتهم وثوراتهم.

الكل هنا يتحدث عن طرد الشرطة عشرات الآلاف من أفراد العائلات المغربية، وقد جاءني من مغنية عبد الملك بن عاشور فزعا، يطلب توسطي لدى معارفي بحكم أنني رجل ثوري، ولدي علاقات مع أصحاب النفوذ، فأغلبهم هم رفاق كفاحك كما كان يردد. جاء من أجل أن أتوسط له هو وعائلته لإبقائهم في بيتهم بضواحي تلمسان من دون أن يتعرض لهم أي أحد، عائلته مكونة من ثلاثة عشر فرداً. وتلمسان هي مسقط رأس كل أولاده من زوجته الجزائرية ربيعة.

الرجل من خلال حديثه معي لم يتقبل خبر طرده وشتات عائلته بعد أن عاش كل هاته السنين في هذا البلد.

لم أنقبّل الأمر ولم أستسغه إطلاقاً، فبعد أن طُويت صفحة حرب الرمال 1963 التي أزهقت فيها أرواح الأشقاء وسالت فيها أنهار من دماء رفاق محاربة الاستعمار والتحرر، ها هي صفحة سوداء أخرى في تاريخ البلدين تفتح مجدداً.

اخترت العزلة في بيتي، لست على ما يرام، كنت مبعثرا، ومرتبكا تماما، وأشعر بشيء من الخوف والذعر، كأنني داخل دوامة لا تهدأ، أو كلما كانت تتوقف إلا وتبدأ مرة أخرى. الباب مغلق كالعادة، أعرف أن لا أحد سيجرؤ على طرقة أو دفعه أو ركله. بعد أربعة أيام، أعتقد أنه كان يوم الأحد إن لم تخن الذاكرة، أسمع ضربا خفيفا على الباب، أحسست بأمعائي تتقطع وبدأ وجهي يتقلص من الفزع.

كل شيء ممكن في هكذا ظروف استثنائية، وممكن أن ينقلب الوضع على الجميع دون استثناء، حتى على أولئك الذي ساهموا في تحرير هذا البلد.

لما اقتربت من الباب، كانت أصابع يدي اليمنى لا تطاوعني على فك القفل، تصلبت حتى بدت كأنها متجمدة. لما فتحت، ظهر لي سي قدور الوناس في المقدمة ولمحت خلفه خيال ثلاثة أشخاص، لما دقت النظر فيهم تبين لي أنهم من رفقة طاولة المقهى، حسين وأحمد وعبد الوهاب.

أمام حيرتي بادرنى سي قدور بالسؤال عن أحوالي، وعن أسباب اختفائي عن الأنظار على غير العادة. كما أخبرني بانشغالهم وخوفهم بأن يكون مكروها ما قد أصابني أو ظرفا طارئا قد ألم بي وحال دون تمكني من ارتياد المقهى كما دأبت كل يوم.

بعد أن طمأنتهم، دعوتهم إلى الدخول إلى البيت. عندما دلفوا إلى الداخل أكيد أنهم انتبهوا للفوضى وهي تعم المكان؛ أحاول جمع بعض الأفرشة الموضوعة كيفما اتفق، كما أنني كنت في ذات الوقت أبحث كالمشئت عن كراسي وأشياء تصلح للجلوس كي أجمعها في وسط باحة البيت، ذرعت المكان جيئة وذهابا أكثر من ثلاث مرات.

أُخرج لهم صينية نحاسية وَصَعْتُ عليها إبريق الشاي الأخضر وأربعة أقداح كبيرة، وصحن الحلويات التي أرسلته جارتى عَائِشَةَ مع ولدها الوحيد دِيدَنْ قبل خمسة أيام ما زال على حاله، لم تدخل

حبة منه فمي؛ في الحقيقة كانت صديقة بختة المقربة وبينهما مَعزَّة كبيرة، كانا لا يفترقان، وبعد وفاة بختة كانت عايشة تتذكرني بين فترة وأخرى بطبق طعام أو بصحن حلويات من صنع يديها. حتى إبريق الشاي كان جاهزا، حضرته صباحا، حتى أنني لم أكمل بعد قدح الشاي الذي تركته في غرفة نومي.

بعد أن أُلححت على الرحيل وعدني سي قدور بالمساعدة، ولما عرف رغبتني في الابتعاد أوصاني بمدينة عنابة وشرح لي كل التفاصيل المرتبطة بالرحلة وبمن سأتواصل معهم هناك لحظة أصل، وهكذا. لحظة مغادرتهم، لم أنتظر هنيهة لاستكمال قدح الشاي الخاص بي، فتحت أبواب الخزانة على مصراعيها، بدأت أقلب في الثياب، من المستحيل أن أخذها كلها، أختار منها فقط ما أراه ضروريا، وباشرت في إخراج أهم الملابس التي قد أحتاجها، وكنت أضعها في الحقيبة على عجل. ولما أكملت من حقيبة الملابس، بدأت في جمع بعض الأشياء والأغراض الأخرى التي تعني لي، أو تلك التي أراها مهمة ولا يمكن الاستغناء عنها أو التفریط فيها. في النهاية استكملت تعبئة ثلاث حقائب: حقيبة بنية متوسطة الحجم وآخرين سوداويتي اللون من النوع البين بين. عدا ذلك تركت كل شيء آخر خلفي، ما تبقى لا يهمني، سأطلب من صديقي عبد المجيد أن يتولى أمره فيما بعد. لا بد لي أن أغادر تلمسان، وأن أبتعد عن مغنية، وعن ابنيّ التوأمين عبد اللطيف وزكية؛ وأتركهما في رعاية جدهما وخالتهما الصغرى زوجة عبد العزيز مطمئن البال عنهما، أفضل بكثير من أن أصبحهما معي، وأعرضهما لمخاطر ومهالك لا يحمد عقباها، من أين لي أن اعطني بطفلين صغيرين وأحملهما معي وعشاء السفر ومشقة الاغتراب عن الأهل؟ كما إنني سأفارق الرفاق الذين اعتدت الجلوس إليهم كل يوم، وسيحرمني الرحيل من أشياء كثيرة أهمها البعد من أجواء مقهى الرماننة، وما يؤلمني أكثر مفارقة صديقي عبد المجيد وسي قدور.

كنت أخرج ثم أدخل إلى غرف البيت مرارا وتكرارا، كأنني أودع الجدران والنوافذ وكل ما خلفته هناك من ذكريات وأشياء جميلة وموجودات ارتبطت بحياتي بها في مرحلة ما. شعرت لحظتها وكأن هناك من أمسك بي بعنف من ذراعي اليمنى وأخرجني من الفردوس بضربة قوية على قفائي، ثم ركلني كيفما اتفق، كأنه طردني من الملكوت دون رحمة وصفق بابها في وجهي.

في المساء عندما كنت بصدد ترك البيت، طغت فجأة على تفكيري صور كانت تتراكم في رأسي دون انقطاع، كما عاودتني الأسئلة المحيرة ذاتها والتي تغطي على ذهني كلما أشد الرحال من مكان إلى آخر:

- هل سيأتي يوم وأعود إلى تلمسان ومغنية، وألتقي بالرفاق مجددا، أم أنني سأهجر إلى الأبد الأمكنة والناس كما تعودت؟
قبل أن أفتح الباب للخروج، حاولت أن أتحمل ما أنا قادم عليه برباطة جأش، ترددت برهة لما طالعني وجه بخته وثغرها الباسم. اجتزت عتبة الباب، وجدت صديقي في انتظاري، كيف أودّع عبد المجيد الغاضب من قراري، وتسرعني، ومبالغتي في تقدير الأمور ومآلاتها؟ من أين لي أن أجد الكلمات المناسبة لهذا الطقس، وقد وجدت نفسي دون رغبة مني محاصرا فيه، حيث لا أتمنى لأي أحد أن يكون في مكاني.

مهما تكن النتيجة، سيكون من الجيد لي أن أترك هذه المدينة الهادئة والوادعة التي منحتني ما لا أستطيع نكرانه ولا أقوى على الجحود به. المدينة التي نحتت بداخلي أشياء حميمة وصادقة وباهرة لا يمكن أن تمحى من ذاكرتي قط.

أخرج من بيتي وفي يدي حقيبة واحدة، أما الحقيبتان الباقيتان فتوزعتا بين يدي عبد المجيد وسي قدور. ما يشبه الإحساس بالوخز بالإبر على كامل جسدي، كأنني مُسَمَّر، رجلاي تخذلانني، لا ترغبان في التقدم ومغادرة المكان لفرط ما ارتبطتا به، كأن ما عشته هناك وما عرفته يشدانهما بوثاق غليظ.

عقب إقامتي في الشقة التي وهبها صديق سي قدور، وعندما كنت مستلقيا على ظهري فوق بساط زرقاطي سميك بدا لي أشبه بالسجاد، كانت عيناى تترقبان السقف وأنا شارد البال حول ما تركته خلفي في تلمسان، من أناس طبيين، ونفوس صادقة، وأمكنة عزيزة على قلبي، كما كنت دائم التفكير في عبد اللطيف وزكية على وجه الخصوص.

فمنذ وصولي إلى عنابة ألفت نفسي وحيدا، ضائعا، ومشتتا. إلى أن بدأ هذا الوضع يتغير تدريجيا مع مرور الوقت، عندما بدأت أعتاد وأتأقلم مع أجواء المدينة المبهجة، وناسها المضيافين، ونمط العيش فيها.

في الأيام الأولى لما كنت أوي إلى فراشي لم يغمض لي جفن إلى غاية تباشير الصباح الأولى؛ فقد كنت نهبا لكل التصورات والأفكار التي تأخذني إلى تعاريج ومتاهات لا قبل لي بها، ومن شدة الأرق تشكلت هالة بنفسجية أسفل عيني. ومن فرط استغراقي في التفكير تسرب إليّ القلق واليأس، حتى غفلت عن الاعتناء بنفسى، والاهتمام بشؤون صحتى، فغالبا ما كنت أنسى مواعيد الوجبات الغذائية، وحتى وإن دخلت اللقمة إلى فمي دوما ما كان ذلك خارج الأوقات الثلاثة المعتادة. ما جعلني أستحيل إلى كائن ليلي غريب، أصحو بعد منتصف النهار، أقضي بقية يومي متعبا، ومرهقا، ومحبطا بسبب قلة النوم، وتذبذب تناول الطعام، والتدخين بشراهة منقطعة النظر؛ في

تلك الظروف المضطربة عدت إلى التدخين بعد انقطاعي عنه طيلة سنوات.

اكتشفت أن النساء هنا يرتدين الملاءة، وهي أشبه بغطاء فضفاض، على شكل قطعة قماش واحدة مفتوحة، ذات لون أسود، تلف كل الجسد عدا الوجه الذي يتوارى أكثر من نصفه بقليل خلف العجار، وهو قطعة قماش بيضاء غالبا ما تكون غير سميكة، أما ما تبقى من النصف العلوي منه فيظل مكشوفاً، حيث يظهر جزء من الأنف والعينين.

العين مفتاح الجمال في نظري، فكل من يمتلك عينيْن ساحرتين، كبيرتين كفنجان، أو لامعتين كحجر كريم، كلما كُنَّ ذوات بهاء أسر للقلوب والنفوس المشتاقة. صرت كلما أمرُّ بشارع، أو أعبّر درباً، أو أجتاز نهجاً، أو أسير على رصيف، إلّا وأضيق في ثنائياً ومتاهات هاتين العينين أو تينك العيون، ولم أكن أكف عن النظر إلى تلك العينين البنيتين، أو الكستناءتين، أو العسليتين، أو الزرقاوين، اللتين كانتا تخترقاني وتأخذاني بعيداً، وهكذا أضحيت مهوساً بهذا الأمر دون سابق إصرار وترصد.

لما انقضت الثلاثة أشهر الأولى على إقامتي بعنابة، وفي عصر يوم من الأيام وبينما كنت قاصداً مقهى المنار في طرف بطحة سيدي شريط في قلب المدينة العتيقة القريبة من ساحة الثورة، صادفت أثناء عبوري الطريق في اتجاه الرصيف المقابل لدار البلدية صديق سي قدور: السيد الأمين العام للولاية. لما تقاطعت نظراتنا، توقف الرجل واعتلت وجهه ابتسامة عريضة، هرعت إليه دون انتظار.

بعد أن سلمت عليه، دعاني للجلوس في مقهى بن رابح لاحتساء فنجان قهوة. ما كان عليّ إلا قبول دعوته عن طيب خاطر، لا شغل ولا مشغلة، إلا تجزية الوقت في التسكع هنا وهناك، بين الأحياء والشوارع، حتى أضحى أغلب الأرصفة تعرف وقع خطوات أقدامي من كثرة ترددها جيئةً وذهاباً كأنها تحرثها حرثاً. وبينما نحن نتحدث

قطع حديثنا كهل كان يرتدي بذلة سوداء وربطة عنق حمراء، وملامح وجهه صارمة، وتختفي خلف شواربه الكتلة شفتان رقيقتان، أما عيناه فلم أقو على الثبات على التحديق فيهما مليا بسبب نظرتهما الحادة. لم ينتظر صديق سي قدور، مباشرة عندما وقف، ووقفت في إثره عرفني على الرجل:

- سي عمار حباشي رئيس فرع منظمة معطوبي الحرب بعنابة.

- نتشرفو بيك.

لما عرف سي عمار بأنني مجاهد، أوماً برأسه وتسملت من بين شفتيه نصف ابتسامة سرعان ما كتمها، وتدقق في الحديث بصورة كسرت وجومه السابق.

بعد هذا اللقاء استجبت لدعوة سي عمار لزيارته في مكتبه، ومن أول يوم زرتة فيه نما لديّ انطباع آخر عن الرجل، وأصبحت أتردد على مكتبه من حين لآخر، ولم أكف عن ارتياد المقهى الذي يجلس فيه مع رفاقه، وكنت مبهورا بشخصيته الفذة ومفتونا بهيبته ووقاره، لا يسكت إطلاقا عن أي شيء أعوج، ولا يتنازل عن مواقفه مهما كانت الظروف والضغوط، لما كان يتحدث عن الثورة واستقلال البلد وتحديات البناء، كان يتحدث بصدق بالغ وبغيرة كبيرة.

وتشاء الأقدار أن يكون سي عمار سببا جوهريا في زواجي بسكينة، ويصبح نسيبا لي، فسكينة ابنة خالته. وبعد سنة من زواجي بالتمام والكمال، أفاجاً بقدوم عمي أحميدة بلحسن والد زوجتي بخته رحمها الله إلى بيتي بعنابة وبرفته ابني عبد اللطيف! فيما بعد أعلمني أن عبد المجيد بن منصور هو من دلّه على عنواني في عنابة. أما ابنتي زكية فأبقاها تحت رعاية وكفالة أخت بخته الصغرى.

في السنوات القادمة يتحسن وضعي بفضل دعم نسيبي سي عمار، فقد رتب لي كل الإجراءات الإدارية للحصول على امتيازات مجاهد معطوب في الحرب التحريرية، منحة تصرف لي بانتظام، ووثيقة

تصريح إنشاء مقهى، كما كنت أتمكن من الاستفادة من مبلغ سنوي جراء قيامي بكرائها لأي شخص يرغب في فتح مقهى، والإعفاءات من الرسوم على القيمة المضافة، وضريبة السيارات الجديدة كل خمس سنوات. والعديد من الامتيازات الأخرى كنت أحصل عليها حالما تستجد، فالبلد نال استقلاله حديثا، ومن فترة لأخرى تصدر مراسيم وقرارات في صالح المجاهدين ومعطوبي حرب التحرير.

بقي عبد اللطيف عندي إلى غاية أن رجعت في مرحلة مراهقته إلى مغنية عند جده، ومنها غادر نهائيا إلى المغرب، ومن ذلك الحين لم يصلني عنه أي خبر.

أما ابنتي زكية فقد أصيبت بمرض غريب أقعدها الفراش لأشهر، وعلى الرغم من اتصالات جدها ونداءات عبد المجيد المتكررة، لم أزرها قط. ولست أدري لماذا تجرأت على القيام بذلك السلوك الأثامي، غير المبرر.

سمعت لاحقا من سي عبد المجيد خبر موت ابنتي زكية، كان وقع الخبر عظيما على نفسي، حفر في أعماقي جرحا غائرا. حتى أنني بت أفضل العزلة، طيلة أسابيع وأنا في خلوة مع نفسي، ولم تعد لي رغبة في الطعام، فلا رفيق لي غير السجائر، كنت أدخن بشراهة، إلى أن تمتلئ منفضة السجائر النحاسية بالأعقاب على شكل هرم، كنت أفرغها، وأعيد ملأها مجددا، وهكذا دواليك، كنت لا أتوقف عن التدخين حتى تنفذ كل العلب التي اقتنيها، وعندما يطلع النهار كنت أقتني من الكشك القريب من بيتي علبا أخرى، كانت هذه الدائرة التي تدور فيها معظم أيامي التي تلت موت ابنتي زكية. ومنذ تلك اللحظة المفجعة لم يهنا لي بال وأستحوذ علي حزن مرق روي، حتى وإن حاولت التظاهر بعكس ما يعتدل في داخلي، أو سعيت خلف أفراح ومسررات عابرة، كانت سرعان ما تختفي كسراب.

لا أعتقد أن الزمن سيسعفني لأشفي وأتصلح مع ذاتي، لا يمكن أن أسامح نفسي على تقصيرها، كان حريا بي أن أرهاها، لا أعتقد أنه

بإمكانني بأي حال من الأحوال ترقيع أو ترميم تلك الشقوق العظيمة والتصدعات الهائلة في روعي التي تسببت فيها غفلتي الغبية وأنايتي المفرطة. كل ذلك كان جراً تنامي وتعاطم هوسي المرضي بالمكاسب، والمزايا، والمنافع الوليدة والعبارة.

سهوت عن كل شيء تركته خلفي يمت بصلةٍ إلى حياتي السابقة في مغنية وتلمسان؛ هناك حيث تركت قطعة من روعي، فلذة كبدي زَكِيَّة، لم أبال ولم أهتم لا بحياتها ولا بمماتها. أصابني عمي وصمم نحوها، قتلها إهمالي وغفلتي عنها، تبا لي كم كنت نذلاً، وقذراً، وخسيساً كي أجرؤ على التورط في كل هذه الفظاعة، والشناعة، والبشاعة!

حتى عبد اللطيف تركني وغادر إلى وجهة مجهولة في المغرب، من غير رجعة. هل هو إمعان القدر في إنزال العقاب عليّ؟ أم مزيد من التواطؤ على محاصرتي وإذلالتي، وفعل مقصود على غلق كل أبواب الاستدراك في وجهي!

رويدا رويدا أخرجني سي عمار بعض الشيء من عزلتي، كان يصحبني في الأيام الأولى إلى البحر، ثم إلى المقهى، وبعدها إلى مكتبه. إلى أن عدت أخرج بمفردي، وأتردد عليه بين الحين والآخر في المكتب أو المقهى حيث اعتدنا الجلوس.

وفي الأيام التي تلت خروجي من عزلتي، أصبح ينتهي بي المطاف أحيانا في جامع سيدي إبراهيم بن تومي، فلم يسبق لي وأن انتظمت في أداء الصلاة، أو اعتدت على ارتياد الجوامع، بالكاد أتذكر آخر مرة صليت فيها، على قصرها وطول فترة انقطاعي عنها عن غير رجعة. عدا أن صورة حركة المصلين في دخولهم وخروجهم من مسجد صالح باي، مهرولين أو متكاسلين لا زالت راسخة في ذهني، إذ كنت أراقبهم وأنا أرتشف كأس الشاي من طاولة مقهى المنار المطلة شرفته على بطحة سيدي شريط.

شيء غريب كان يَسُوقني إلى جامع سيدي إبراهيم، لا أجد تفسيراً له، كل مرّة أجدني ها هنا أمام ضريح سيدي إبراهيم بن تومي المدراسي علامة بونة ورجلها الورع والتقيّ. وألمح سي محمد الطاهر يرمقني بابتسامة وادعة في الجهة المقابلة، إلى أن يقترب مني، ويربت بيده اليمنى على كتفي دون أن ينبس بكلمة واحدة. شيء غامض يجذبني إلى هذا المكان.

بعد مضي وقت لا أستطيع تقديره وأنا جاثم كالصنم أمام الضريح، أقرفص في صحن الجامع برفقة قَيِّمِهِ سي محمد الطاهر، غارقاً في تلك العوالم التي يرويها لي عن مشاهداته والرؤى التي تراءت له هنا في الجامع أو في بيته المحاذي لطاحونة كَاوْكي، كان هادئاً، وصافياً، ونقياً، وأحياناً أرى ارتعاشة تصيبه أثناء الحديث. كان كل شيء حوله هو خواء.

لقد بدا لي أن السماع لحديثه والجلوس إليه يشعرنني بطمأنينة غريبة، وببعض الراحة التي قلما أجدّها في مكان آخر. كانت كلماته تطفئ ظمأً في داخلي، وتبدد بعضاً من تلك الحيرة التي سكنتني، وتذهبُ عني ضيقي الذي يعذبني. كنت كأني أمام كائن قادم من زمن سحيق؛ غالباً ما كان يحدثني عن المجاذيب والدررايش الذين يقصدون الجامع من فترة لأخرى، لما يخرج لاستقبالهم ينادونه يا إبراهيم.. يا إبراهيم. وحالما يدخلهم للميضأة، وقبل أن يغسل لهم أطرافهم، أو ينظف السواد الذي كسا جلدتهم، حتى أضحى ككتلة أو طبقة خارجية فوق الجلدة، تفوح منهم رائحة المسك على نحو مثير للدهشة والاستغراب! كان سي محمد الطاهر خادماً أميناً لهؤلاء، ومتفانياً فيما يقوم به، غير آبه بما يتلفظ به رواد الجامع أو من يراه على هكذا حال، لا يلقي بالاً بما يتشدقون به: «محمد الطاهر أصابته لوثة جنون، فكل مرة يدخل المجانين والمتشردون إلى الجامع ويرعاهم كملوك...»، وغيرها من النعوت الأخرى والأقوال التي لا يصيح لها السمع على وجه الإطلاق.

كما قصّ عليّ ذات يوم أنه يجتهد باستمرار في تعطير الجامع بالبخور والعنبر ومختلف العطور، ولما ينسى، أو يغفل، أو يقصر في القيام بالأمر، كان يتفاجأ بمجرد أن يفتح باب الجامع من عقب رائحة العنبر المنبعثة من وسطه. هذا الجامع كما يقول سي محمد الطاهر: يعطر نفسه بنفسه. كانت ملامحه تتغير كلما استغرق في رواية تلك القصص التي كانت تحدث معه، وكنت أشعر بنور يغشي وجهه كان أشبه بهالة نورانية تنبثق من داخله، لا أدري كأنه كان مخدرا، أو غائبا عن كل ما يحيط به، فقط كان غارقا في الكلمات المتدافعة التي تخرج من شفتيه، متدفقا، ومسترسلا في الحديث.

حاول مرارا وتكرارا الفكاك من رعاية الجامع، والانصراف لشؤون حياته، كغيره من خلق الله، لم يقو على فعل ذلك، فكلما كان يزداد إصرارا على المغادرة، كان يجد نفسه أكثر ارتباطا بالمكان، مطوقا، ومقيدا، كأنما شيء ما أو شخص معين قد كبله وشلّ حركته. فمند أن كان طفلا لا يتجاوز سنه الخامسة عشرة، وهو في خدمة بيت الله، وفي رعاية وليّ الله. كلما كنت أحاول أن أستفسر منه عن هذا الأمر إلا وكان يستغربه، ولم يجد له تفسيراً منطقياً!

كما حدثني محمد الطاهر عن قيامه بطلاء جدران الجامع مرة في العام احتفالاً بقدوم شهر رمضان الكريم، وقد كان طيلة الشهر يتفانى في خدمة عباد الرحمان أكثر من بقية الشهور الأخرى؛ يفرش السجاد مع عصر كل يوم في ساحة الجامع، ويضع براميل الماء البارد، والأكواب بالقرب منها، ويسهر على نظافة وتزيين وتعطير الجامع بصورة تجعل من يدلف إلى داخله يحب هذا الرجل الطيّب ويدعو له.

اكتشفت أن سي محمد الطاهر يهوى موسيقى المألوف العنابي، وكان يجيد العزف، وصوته شجيّ وبه بحة تجعل القوائد الأندلسية تخرج من حنجرته أكثر شذاً، وتمسحها بمسحة حزينة من الشجن تمزّق القلب وتدمي الفؤاد. لم يكن يغني لأي أحد، فقط كان يرضخ للغناء والطرب تحت طلباتي المتكررة ورجائي له، فقد كنت أعرف

من أين تؤكل الكتف. وفي تلك الأمسيات التي أقضيها معه كنت أستمتع بمنظر الوادي والقنطرة الرومانية الطويلة والجميلة التي كانت تربط بين جامع سيدي إبراهيم والطاباكوب، اللذين سيغيب أثرهما، ولم يعد لهما أي وجود بعد أن يتم خنق ذلك الجزء الجميل من الوادي بالتراب وتهديم القنطرة دون سابق إنذار وعن سبق إصرار وترصد، بعد سنوات بقرار مفاجئ وصادم من والي المدينة آنذاك.

أعتقد أن مبعث ترددي على سي محمد الطاهر يعود إلى شيء لازال عالقا في داخلي، إلى حنين دفين لصديقي عبد المجيد بن منصور ومومو حيون، إلى لحظات ترددي على مزارات وأضرحة تطوان برفقة مومو، وإلى صعودي إلى ضريح لالة ستي، وترددي على ضريح سيدي عبد القادر الجيلاني، أو سيدي بومدين بصحبة عبد المجيد.

هكذا ولفترة طويلة ظللت أتردد على جامع سيدي إبراهيم، وعلى سي محمد الطاهر، وأقضي معه بعض الساعات خصوصا في الأماسي، إلى أن قصدت الجامع في عصر يوم خريفي، وعلى غير العادة لم أعثر على سي محمد الطاهر، فتشت عنه في كل مكان ولما يئست قررت الرحيل.

عندما كنت أشرع في الابتعاد عن بوابة الجامع، خرج لي شيخ يرتدي ثيابا بيضاء، سألني:

- عما تبحث؟

لما أخبرته بمقصدي رمقني بنظرة استغراب، وفاجاني جوابه:

- أنا هو القيم في هذا الجامع من سنين طويلة ولم يمر علينا رجل بهذا الاسم قط.

كررت:

- أمتأكد.. سي محمد الطاهر، لطالما التقيته هنا، وأمضينا أمسيات بطولها معا.

بُعِيدَ ذلك اللقاء ساورتني العديد من الشكوك بشأن وجود محمد الطاهر من عدمه، وهل هو حقيقة، أم شخصية كنت أتوهم وجودها؟ وهل يعقل أن يكون هذا الرجل الذي التقيت به مرارا وتكرارا، ودامت جلساتنا ساعات بأكملها، ودارت بينما أحاديث وحكايات وروايات يعلم الله بها، أيعقل أن جلّ الناس هنا لا يرونه، هل كنت أحدتُ طيفا أراه أنا فقط ولا يراه غيري؟!

وفي عصر يوم جمعة بعد مضي سنتين وبعض الأشهر على آخر زيارة لجامع سيدي إبراهيم، تلك الزيارة التي جعلتني نهبا للحيرة والذهول، تصادف وأن انتهت لرجل يرتدي قميصا قمحي اللون، وتبانا أخضر فوق الركبة بقليل، وقبعة مستديرة ذات لون رمادي، عيناه مختبئتان خلف نظارة شمسية سوداء، كان يرمقني بطريقة غريبة لم استسغها. وما أن توقفت، حتى لمحت الرجل قادما صوبي، كنت أهدق فيه مليا، شبه إليّ، لكن لم اهتد لمن. وإذ ذاك وأنا غارق في حيرتي تلك، حتى اقترب مني الرجل، وقال دون انتظار:

- ما بك يا عبد القادر، ألم تعرفني، أنا محمد الطاهر.

كنت جاثما في مكاني على وقع الصدمة والمفاجأة الغريبة، أأكون هو، مستحيل.. مستحيل. هل هو حقيقة من لحم ودم، أم وهم صنعته أنا من خيالي الخصب؟ فيحدث وأن تُخَيَّلَ لي أمور غريبة، وغير منطقية تماما، وفوق قدرات العقل. وأنا سارح في التفكير، أضرب أخماسا في أسداس إلى أن أومأت له شابة في كامل تبرجها بطريقة مريبة، يبدو أنها كانت تنتظره أو على موعد مسبق معه.

تركني على حيرتي، وانصرف من دون أن يودعني أو حتى يستأذن. فقط غمز لي بعينه اليسرى وغادر بصحبة تلك الشابة بعد أن طبعت قبلتين طازجتين على خديه، وهي تجتر علكتها وتداعب شعرها المنسدل بشيء من الإثارة المصطنعة.

بقيت متمسرا في مكاني أهدق فيهما، كان يتأبط ذراعها، وهي تتمايس ذات اليمين وذات الشمال، وكعبها العالي يخرق الرصيف

بشكل لافت للأنظار، إلى أن اختفيا وسط الحشد، في الأثناء تركت سحابة عطر خلفها، وبقيت تلك الرائحة عالقة في أنفي إلى غاية اليوم. ومن ذلك اليوم لم أره قط، ولم أهتد لأي جواب عن تساؤلاتي بشأنه.

في النهاية أكاد أجزم أن وجودي في جامع سيدي إبراهيم، واجتماعي بسي محمد الطاهر ليس عبثا، ولا يمكن أن يكون مصادفة تحدث لأي كان. إنه شيء يصعب شرحه أو تفسيره، لكنه ما يشبه القدر الذي لا رد له. ومع اختفاء سي محمد الطاهر، أو مع اكتشافي أنه محض أوهام صدقت أنها حقيقة، ألفت نفسي كلما يضيّق صدي وتتعسر أموري أقصد البحر، لا ملجأ لي غيره.

كنت أجلس على صخور القطارة بمحاذاة شاطئ النصر، أقفز فوق الدرايزين الحديدي الأزرق، وأنزل المنحدر الصخري بحذر كي لا أسقط. بعد لحظات، لما أصل، أتوقف عند مكاني الخاص الذي أعرفه ويعرفني، من كثرة ترددي عليه، الموقع نفسه، والصخرة ذاتها، نشأت بيننا علاقة خاصة وحميمية. لا شيء تغير، حتى مفهوم الزمن يتوقف هنا. أقف مشدوها أمام منظر البحر الأزرق وهو يطوق المدينة بحنو وعشق، أتوق بشدة إلى هذه اللحظة، لا أمل من رؤية هذا المنظر، فبالنسبة لي لا منظر يباهيه، غير منظر جبل الإيدوغ وهو جاثم بكل رهبته وجلاله يحرس المدينة، عيناه مفتوحتان، لا تمانان إطلاقا. أغرق في تأمل الأمواج في ذهابها وإيابها، وارتطامها بالصخور، ومن حين لآخر أنتعش برذاذها الذي يبللني. أستفيق من سرحاني، ثم تأتي لحظات أخرى أسهى فيها وأنا أتتبع النوارس العنيدة، التي لا تتوقف عن الصخب والمشاكسة.

بين الصخور القريبة مني يتوارى مجموعة شبان وحتى بعض الأطفال، يحتسون البيرة، أو ينفخون في أكياس البتاكس للانتشاء، أو يرمون سيجار حشيش، أو يسرقون بعض اللذة مع فتيات مراهمات متسختات ومتشردات في أغلب الأحيان.

كما هناك صياد أو أكثر في المكان، يتربص تحرك خيط صنارته
بصبر أيوب.

لا أكاد أراهم، أو أسمعهم، أو أشعر بهم. كأن الخرس والعمى
أصاباني، فكل حواسي أضحت في هذا المكان تعمل بانتقائية غريبة،
لا أكاد أفهمها. هم خارج عالمي. أنا بمثابة حصاة في عالمي الأرحب.
أحيانا أحسد أموات مقبرة زغوان على موقع المكان الذي يرقدون
فيه، في المرتفع خلف ظهري الذي يطل على هذا المنظر الآسر.

لو لا ذلك الشاب الذي عكر علي صفو خلوتي بتداعيه الحر في
الحكي، دون سابق استئذان، لما استفتقت من ذاك الحلم الجميل. لم
أرغب في أن أخرج، بسبب لطفه وطيبته اللذين غمرني بهما. رائحة
الخمرة تفوح من فمه، لكنه لم يثمل، وجعلني أصحو من ثمالي.

كما كنت أتأمل من مرتفع رأس الحمراء طيور النوارس ولون
البحر وهو يتحول إلى أزرق فيروزي أسر. أتجرد من كل الضغوط
فيما تتراءى لي من بعيد بعض السفن وبواخر الصيد. تنتصب المنارة
شامخة أمامي والصخور العظيمة محاطة بها في مشهد يثير الرهبة.
لما كنت بصدد ركوب الحافلة التي ستقلني إلى البوني، مرّ
بجانبي قطيع من أطفال المدارس، يصيحون، ويصرخون، ويتدافعون،
ويصطكون، ويتضاربون، ويتعاركون في مشهد يثير الشفقة والاشمئزاز
كأن القيامة قامت. إلى أن بدأ أكبرهم في الغناء وهم يرددون من
خلفه، أما أنا فكنت أتألم في داخلي بعمق، كلما أسمع الأطفال
يرددون تلك الأغنية: «يا طيارة نعلبوك جيبي بابا من المروك»، ليتحول
هذا الألم فيما بعد إلى أسى عميق يعصف بي في كل المتاهات لأيام
متتالية.

هؤلاء الأطفال حالما يرون طائرة تحلق في السماء يصدحون بتلك
الأغنية بتناغم غريب وبصوت واحد كأنهم تمرنوا عليها باقتدار، وهذا
الأمر كان يتكرر كثيرا في اليوم الواحد خصوصا وأن مطار «رابح بيطاط»

لا يبعد إلا بكيلومترات قليلة عن وسط المدينة، وعن الحي الذي أقطن فيه. كانت الحرب بين البلدين والصراعات التي تلتها أسبابا مباشرة في إذكاء خيال الأطفال لابتكار هكذا كلمات مشينة وعنصرية.

كلما أتصادف مع هكذا موقف كنت أشعر أنني المعني الوحيد وأنهم لا محالة يقصدونني أنا، لا أحد غيري، على الرغم من أن هويتي الحقيقية غير معروفة لدى الكثيرين. كأنهم يوجهون سهام كلماتهم الحادة إلى صدري المثقل بكل الهموم، هكذا كنت أرى الدماء النازفة من داخلي تتدفق بغزارة كلما ردد أطفال الحي أو أطفال الأحياء المجاورة أو البعيدة كلمات تلك الأغنية.

استمر الأمر معي لعقود حتى غدا من تفاصيل المشهد، ومن تكراره الفج اعتدت عليه، ولم أعد أتبرم إطلاقا من هؤلاء الأطفال. إلى أن توقف تلقائيا بالتقدم مع مرور الزمن، حيث انقطع توارث تلك الأغنية بين أجيال الأطفال ولم تعد شائعة وغدت كلماتها مهجورة إلا فيما ندر.

هناك بابان لا يزالان مشرعين على مصراعيهما في ذاكرتي، بأت كل محاولاتي في إصادهما بالفشل، ظلا يستنزفان طاقتي وروحي المتعبة ويهتلكان عمري المتبقي دونما توقف، كسيارة تسير بسرعة جنونية في منحدر خطير تستحيل السيطرة عليها، فما بالك بإيقافها بعد أن فقدت مكابحها. مهما حاولت أن أتناسى أحداث ذاك الماضي، إلا وكانت في المقابل تقتحم حياتي بصورة فجأة وصارخة جدا، حيثما ذهبت وفي أي جهة من جهات الأرض بلغت، أو أنما وليت وجهي إلا وكانت تصدمني تلك الصور المتابعة التي أبت أن تفارقني في صحوي ونومي ويقظتي وغفلتي، كنت أراها دوما في كوايبسي وهلاوسي وهذيانني ووعبيي التام كأنها مرت قبل لحظات أو بالأمس القريب فقط، وليس مضى عليها عقود طويلة من الزمن!

ظلت صورة ابنتي زكية لا تفارقني، كما ظلت صورة أعين السيدة جاكلين زوجة المُعَمَّر غابريال غومون وأبنائه الصغار، وملامح

وجوهم الكسيفة والكسيرة وهم يستجدوننا ويطلبون رحمتنا في صمت كالجروح المفتوحة التي لا تتوقف عن النزيف. كانت ذكرياتي مرتبطة دوماً بوفاة ابنتي زكية وبحادثة قتل المعمر الفرنسي غابريال؛ كان من المقرر أن نُصفي المُعَمَّر خلف بيته، وبالضبط في المرآب، لكن رصاصة غاضبة اندفعت من ماسورة بندقية ريفي لخضر بونوة، أنهت كل شيء لما اخترقت جسده.

كان حريا بي أن أمنع وقوع هذا الخطأ الفادح من قبل حدوثه، لما أثار حفيظتي إدراج لخضر بونوة معي في هذه المهمة، ساورتني الشكوك بخصوص اندفاعه وتهوره، وهل هو أهل لأداء هكذا مهمة تتطلب الدقة وبعض الترتيبات التي لا يجب القفز عليها؟ لكن لم أحرك ساكنا. والمتعب جدا في الأمر هو أنني أتذكر تينك الحادثتين بكل تفاصيلهما حتى تلك الصغيرة والدقيقة وكأنهما حدثتا للتو. وحين أستعيد تلك اللحظات المظلمة في حياتي واسترجع دقائقها وكل حيثياتها، أدرك أن الأمر الوحيد المشترك بين هاتين الذكريتين هو كمّ الألم الكبير ومنسوب الوجد العظيم المترتب عن تحولهما إلى حقائق ووقائع وكأنها تحدث الآن، ولا معنى إطلاقاً من إخفاء أي شيء أو الهرب منه، فالذاكرة ستفضح سرّيته، وأمام سلطتها وسطوتها لا يمكن أن يبقى أي شيء خفياً أو متضائل الحضور. فبإمكانها دون أدنى شك أن تضاعف أثره وتعظمه، فهنا بالذات لا مكان صالح للاختباء ولا مجال للاختفاء أو التلاشي، فأمام الذاكرة كل تلك اللحظات حاضرة بقوة وطاغية على غيرها.

في الكثير من الليالي دوماً ما تطاردني الكوابيس ذاتها، كنت أسقط على الأرض وأنا نائم، أحاول أن أحرك أطرافي لا أستطيع، أرغب في الوقوف فلا أقوى، كأنني مشلول وجنيّ عظيم يشبه المُعَمَّر غابريال، جاثم فوقي ويكبلني، يضغط بأصابعه الهائلة على رقبتني، أشعر بالاختناق. لما أحاول ثنيه أو أرغب في إطلاق صرخة بعد أن أعجز عن مقاومته، يكتم على أنفاسي، ثم يدخل يده كلها في

فمي، ويسحب لساني بشدة، إلى أن ينتزعه دون أن تندلق قطرة دم. يلف نفسه حولي مرة أخرى، ويشدُّ أكثر فأكثر، وكلما حاولت أن أطلق زفيراً، زاد الجني العظيم ضغطه، يعصرني إلى أن أخنق تماماً. ثم يفتح فاه على آخره حتى تظهر من مؤخرته أسنان مُحَوَّرة أشبه بالأنياب، يبتلعني مرة واحدة كقطعة كاملة، دون أن يمضغني، أو يطحنني، أو يقطعني!

دوماً ما كانت سكينه تستيقظ على صراخي المدوي، وغالباً ما كنت أفرعها لما أتحدث وأنا نائم بصوت مرتفع. الكوابيس التي تلاحقني تجعلني استيقظ مرات عديدة، بعدها كنت أمضي بقية الليل أنقلب في الفراش. يستبد بي النعاس، لكن لا تقوى جفوني على الرضوخ له. أحياناً لا أبرح السرير، أشعر بعضامي تؤلمني بشدة كما لو كنت قد حملت فوق ظهري كل أوزار العالم، أو عملت طوال النهار بمشقة كحتال بائس يشقى خلف لقمة عياله. وفي مرات استيقظ في الساعة الواحدة صباحاً لأفرغ مثانتي، ومرة أخرى في الثانية، وفي الثالثة أذرع الغرفة أو رواق الشقة، وفي كل ساعة تقريباً استيقظ. ولا يعرف لي النوم طريقاً، ورأسي لا يتوقف عن التفكير واستعادة ذكريات الماضي، كما أن الانتظار يتلاعب بي وينهش صبري، إلى أن تفاجئني أولى خيوط ضوء النهار الجديد وهي تتسرب بخجل من الفراغات الطفيفة على البرسيان الخشبي للنافذة. أظل أراقبها بحسرة حتى أنام ثانية بانقطاع، وهكذا دواليك. ولما استيقظ لا اعرف بالضبط المدة التي نمتها، كما لو أنني فقدت الاحساس بالزمن.

كما كانت تظهر لي في المنام ابنتي زكية، وجسمها مغطى كله بالجراح، ووجهها مليء بالندوب والقروح، وشفتاها الرقيقتان مدهونتان بالدماء، وفي أعلى رأسها تظهر ندبة كبيرة مفتوحة، متهيجة، ويخرج منها القيح. أسماها بالية، وممزقة، ومبللة بسائل أسود، كأنها حيوان مستنقع. بينما أنا كنت اهتز وأرتجف وأنفاسي متقطعة، ونبضي متسارع، وروحي ضيقة تكاد تنطبق عليّ، وكنت

أرغب في الصراخ والبكاء، لكن من دون جدوى. وكلما كنت أحاول الهرب، كانت زكية تتشبَّتْ بطرف سترتي، إلى أن تتمزق تماما. ولما تقيديني بحزام جلدي غليظ، كانت تبدأ في لطم وجهها وجبينها على الحائط، ثم تشرع في البكاء، كانت دموعها حمراء قانية، إلى أن تحدق في مقلتي وهي تشير بسبابه يدها اليمنى صائحة في وجهي المنقبض: «أنت لا تستحق شيئا، لن أسامحك، سأكون كالشوكه في حلقك، لن يهنا لك بال». ومن شدة الفزع والهلع الذي أصابني من مشاهدتها، والشعور بالذنب والاستياء من سماع تلك الكلمات التي قذفتها في وجهي، كنت جاثما في مكاني، راضخا، مكبلا، لم أتحرّك قيد أنملة. إلى أن تدفعني من فوق جرف مرتفع، لا أدري كيف وجدّني هناك، كان جسمي يطير ويهوي في متاهة السقوط، كنت أراني أغيّب، كما تغيّب الشمس لحظة الغروب، لكن الشمس بإمكانها أن تظهر في صباح اليوم الموالي، بينما غروبي كلي ونهائي، ولا شروق لي بعده.

كنت أرى جسدي ككتلة في الفراغ، ستنتهي نحو القاع المظلم، كما ينتهي أي شيء آخر، ولم يعد له صدى أو رجح صدى، لا ملاذ آخر أفر إليه، أنا في نقطة عدم الرجوع، لا مهرب من الموت التي فردت لي أجنحتها وشرعت ذراعاها في القاع بانتظاري، وأنا ماض نحوها مستسلما لقدري، كنت أهوي إلى القاع دون أن أصل إليه، ظللت في سقوط مستمر، لا نهاية له، حتى التهمني ضباب كثيف وابتلعني الفراغ العظيم.

III

ذاك الجحيم هو ما حصل!

«إن متُّ بينكم يوماً

لا تُقسموا بخلص روحي، لا صدقا

ولا حتى زوراً».

صالح القرمادي (1933-1982).

كنت متمددا على سريري، سارحا بخيالي في عوالم بعيدة، كأنني غير موجود. غالبا ما كنت أغيب عن جل ما يحيط بي حالما أشرد في تفاصيل وجوه أو حكايات مضى عليها زمن طويل، أدخل في حالة سفر معنوي مع ذاتي، أنقطع عن اللحظة الحاضرة وأدلف إلى عالم آخر لا أحد يعرفه غيري.

فجأة قطع علي الطرق العنيف والمتواصل على الباب خلوتي الجميلة تلك. في البداية لم أنتبه لجرس البيت وهو يلعلع، ثم تكاسلت عن الاستجابة للدق على الباب، ظنا أن ابن أحد الجيران جاء ليطلب البصل أو الثوم أو أي شيء آخر، فعلى الرغم من زجري لهم وتذمري الصارخ من سلوكاتهم تلك، إلا أنهم لا يتورعون عن التوقف عن عاداتهم المقيمة تلك. أو أن أحدا منهم جاء يتأبط كتابه أو كراسه تحت إبطه بتكاسل أملا في الاستعانة بأحد أبنائي في حل مسألته المدرسية العالقة، كأن لا أحد متعلم من بين كل سكان العمارة سوى أبنائي!

لكن الضرب العنيف على الباب الفولاذي الخارجي تواصل صعودا بشكل أفرعني، أعتقد أن من يقف خلف الباب كان يضرب بقبضة يديه بأقصى قوة ممكنة، حتى كأن الباب يكاد ينقلع من إطاره الحديدي المثبت على الجدار. الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، فقد تصاعد الضرب على الباب بشكل عظيم إلى أن استحال إلى ركلات بالأرجل، من عدد الركلات أعتقد أن هناك أكثر من شخص يقف خلف الباب الخارجي.

لم يكن الوقت أمامي متاحا أكثر للتفكير أمام الضرب العنيف الذي لم يتوقف ونظرات وهلع سكينه المفجوعة التي كادت أن تقذف بروحها أمامي من شدة الفزع. هرعت للباب مهرولا، لما أدت القفل الأول ثم الثاني، لم يسعفني الوقت حتى أفتح الباب، فهناك من دفع الباب بقوة من الخلف، حتى فقدت توازني وكدت أن أسقط أرضا، لو لا أن أحدهم مد لي يده وانتشلني من سقوط مؤكد.

لم أنتبه لتفاصيل ملامح وجوههم المتشابهة والصارمة والحادّة، عدا أن عددهم كان كبيرا، وكانوا يصرخون في وجهي. أراحوني أنا وسكينة في زاوية في المطبخ، حيث تقبع الطاولة المستديرة بكراسيها الأربعة، وتفرقوا مسرعين، توزعوا على غرف البيت، كأنهم يطاردون شخصا ما أو بالأحرى يبحثون عن هارب من قبضتهم تسلل خفية من خلف الجدران إلى بيتي من دون أن ننتبه له.

كان المشهد غير مألوف بالنسبة لي، عدا أنه ذكرني بصور اقتحامات الأمن والجيش الفرنسيين على بيوت الجزائريين إبان فترة الاستعمار. كما أعادني إلى فترة أقرب بعض الشيء، مرحلة التسعينيات الدموية، حيث عاشت الجزائر أسوأ حروبها، إذ كان الابن يغتال والده، والأخ يذبح أخاه من الوريد إلى الوريد!

كنت في المطبخ أسمع صفق أبواب خزانات الملابس، وصوت أدراجها الخشبية وهي تتهاوى على الأرض، والجلبة الكبيرة التي كان يحدثها تحريك وإزاحة أسرة النوم وغيرها من موجودات الغرف. من خلال الضجيج الذي أحدثوه والأصوات التي كانت تصلني، فهمت أنهم قلبوا البيت على رأسه. وأحالهو إلى فوضى عارمة!

لكن ما لم أعه، وما كنت في الحقيقة عاجزا عن إيجاد جواب شاف له في قرارة نفسي، هو مبعث فعلتهم تلك، والدافع الذي حملهم على تصرفاتهم المجنونة والهستيرية تلك؟ فقد قلبت كل شيء في رأسي، ولم أصل لأدنى نتيجة أو أي رابط ما يخرجني من حيرتي التي استبدت بي!

قلبت الحاضر والماضي، كل أحداثهما بتفاصيلها المملة والرتيبة، راجعتها الواحدة تلو الأخرى، وقلبت مشاهدتها في ذهني صورة بصورة، لكن من دون جدوى! كنت لحظتها نهبا لكل الشكوك العابرة والظنون المحتملة، والتي كانت تتوزعني وتقذف بي في كل الاتجاهات والدروب الضيقة والمظلمة، أحسست بضعفي المزمع وعجزني الفادح، حتى أنني تصورت نفسي أحقر من ورقة يابسة تتقاذفها الرياح أينما شاءت.

كان وقع الانتظار والترقب أكثر ثقلا. لم يبق أمامي ما أراهن عليه، سوى الزمن، فهو الكفيل بأن يعرفني بالأشياء التي غابت عن إدراكي، هو من سيكسر جوع فضولي القاتل. فقد كانت حركته مملة جدا، ومطئنة في الرتابة. وكنت أسيرا لظنوني وعاجزا عن فك خيوط ما يحدث حولي، إذا خذلني الزمن كما خذلتني الكثير من الأشياء الأخرى التي سبق وراهننت عليها. بصراحة نفذ صبري، وبت عاجزا عن الاستمرار في أداء دور الرجل اللبق والهادئ. لم أعد أدرك أي شيء، غشاوة على عيني. بت كالأعمى، إلى أن انفجرت صارخا في وجه أقرب واحد منهم، كان على مرمى بصري، ذاك الواقف في رواق البيت غير بعيد عن خزانة الأحذية:

- كيف تسول لكم أنفسكم فعل ذلك؟ أنتم لا تعرفون من أكون، طبعا فأنتم ولدتم البارحة فقط. لو لم نكن نحن لما كنتم اليوم تنعمون بالحرية.

وفي الحال صاح في وجهي بصوته الحاد، رافعا الكلاشينكوف بيده اليمنى إلى الأعلى بحركة لا إرادية تشي عن غضبه الشديد: - أسكت ياالحاج، لا ترغمني على التصرف معك بطريقة أخرى قد لا تحبها. ألزم مكانك وألتزم بالصمت. وإلا...

قطبت حاجبي وقلت له في ثقة مفرطة على الرغم من أن طرف فمي بدأ في الارتعاش من شدة غيظي:

- إلا ماذا؟ أنت لا تعرف من أكون، ستندم. لن أتركها لك تمر هكذا دون حساب. سأتصل بمسؤوليك، وستدفع ثمن كل كلمة تفوهت بها. وبعد أن تطلع في وجهي في صمت برهة زمن، قال وهو عابس السحنة بعد أن أخرج صدره، كأنه لم يأبه لنبرة كلامي:

- نحن في مهمة رسمية، وها أنت بسلوكك هذا تعرقل رجال الأمن أثناء أدائهم عملهم وواجبهم المهني. يجب أن تتوقف عن تهديداتك التي لا طائل منها. وأن تدخر جهدك وقوتك للخروج من ورطتك.

ابتعدت عنه، وعدت أدراجي مرتدا القهقري حيث ما زالت سكينه جالسة على الكرسي ويدها حول رأسها، ثم ساد صمت طويل. لو لا ضجيج الأصوات المنبعثة من الغرف الذي كسر الهدوء. في غرفة الأولاد أحدث رمي الأغراض والموجودات بعض الجلبة، فقد كانوا ينبشون كل شيء، ويفتشون في كل ما يقع تحت أيديهم ثم يلقون به كيفما اتفق. ظللنا أنا وسكينة جالسين على كرسي طاولة المطبخ بلا حراك، نضرب أخماسا بأسداس، وهم يقلبون البيت رأسا على عقب. لم يكن بوسعي معرفة ما يدور في أذهانهم الآن. على الرغم من الجهد الكبير الذي بذلته في التفكير في الأمر. لم يكن أمامنا إلا الانتظار، لا نملك شيئا آخر غيره. انتظار ما ستسفر عنه الهيستريا التي اجتاحتهم!

بعد أيام تم استدعاؤنا أنا وسكينة وسعيد من قبل الشرطة ثم الدرك، وخضعنا إلى تحقيقات طويلة ومتتالية حول أسباب اختفاء ابني ادريس. لم أت لهم على ذكر سيرة الدفتر والمفكرة اللذين عثر عليهما ابني سعيد في غرفة نومه وسط الأغراض والملابس المبعثرة فوق بعضها البعض كيفما اتفق. لقد احتفظت بهما في خزانتني ولم أجرؤ على فتحهما وقراءة ما احتواه باطنهما.

وفي ضحى يوم من الأيام التي تلت تلك التحقيقات المرهقة والمضجرة قررت خوض المغامرة، اقتربت من الباب الجانبي للخزانة

المحاذي للحائط، ظهرت صورتني شاحبة على المرآة، لم أتردد، فتحت الباب بالمفتاح المثبت فيه، امتدت يدي تحت الملابس المرصوفة فوق بعضها البعض، سحبت الدفتر والمفكرة، تأبطتهما كأنني أحاول إخفاءهما على الرغم من أنني كنت بمفردي في غرفة نومي.

جلست على طرف السرير، وشرعت في فتح الدفتر الكبير ذي اللون الأحمر المرجاني، وبعد هنيهات امتدت أصابعي للمفكرة الصغيرة ذات اللون الأخضر الغابي، كنت أقلب الصفحات تباعا، الأسطر كانت مرتبكة ومائلة وكبيرة لدرجة أنها بدت كأنها متداخلة في بعضها البعض، لولا الخطوط الرفيعة في الصفحات لتعذر علي فك طلاسمها. اكتشفت أنها ما يشبه اليوميات أو الانطباعات مدونة بخط ابني إدريس. اعتدلت في جلستي، بعد أن أخذت نظارتي من فوق الطاولة المحاذية لزاوية السرير، ثم شرعت في القراءة.

الدفتـر الكـبير ذو اللون الأحمر المرـجاني

لم أكن ألعب وأشأغب كباقي الأولاد، ولم أعش طفولة طبيعية كما ينبغي لمن هم في مثل سني، فقد مررت بأوقات عصيبة وحرمت من التمتع بأبسط ما يرغب فيه طفل صغير.

أكره تذكر تلك الأوقات وقسوتها غير المحتملة، كل ما مررت به زاد في انعزاليته، وقضى على كل مشاعري، بت أكثر انطوائية مقارنة بأترابي، وأضحت علاقتي بالأشياء وبمن هم حولي باردة جدا، ولا تطاق. فلا غرابة أن لا تعتريني مشاعر الفرحة عند الحصول على علامة جيدة، أو عند سماع خبر نجاحي بتفوق، أو أثناء ظفري بأشياء أو ثياب جديدة.

تحالفت ضدي كل الظروف السيئة، وغالبا ما كان مناخ البيت والمدرسة من صنع هواجسي تلك، ففي البيت كان أبي، وفي المدرسة كان زملائي. وعند الحديث عن المدرسة ومحيطها؛ غالبا ما كان جلال كواشي أهم سبب في كل بلاء حل بي هناك، فقد عانيت مرارا وتكرارا من ميوله العدوانية، وكان مصدرا لأغلب المشاكل التي حدثت بيني وبين زملائي في الدراسة.

كان بشعا إلى درجة لا توصف، بصوته البوق، وقامته القصيرة، وجسمه الفائض وكرشه العظيمة. أما جمجمته الكبيرة المنفرة، وخصوصا جبهته المسطحة، فغالبا ما كان يستغلها كميزة تمنحه

الأفضلية في العراك والمبارزة، فكثيرا ما كان يسقط منافسه مغشيا عليه بنطحة قاضية، لا ينفعه معها الصراخ أو التلوي. كنت أبذل جهدا كبيرا كي أتجنبه وأنفادى شره وتعنيفه، اضطر مكرها إلى تحمل الضجر والملل الذي ينتابني أثناء جلوسي في المقاعد الأولى من الصف الدراسي، وتحمل المعلمات البائسات وطلباتهن التي لا تنتهي؛ «إدريس امسح السبورة. جاوب على السؤال. أكتب الحل في السبورة. أحرس زملاءك أثناء خروجي»، وغيرها. لأنه غالبا ما كان يختار المقاعد الأخيرة.

هو مخلوق غير مهذب ونزق وعدواني، الواقع أن كل سلوكاته وأفعاله المشينة لا تمت بصلة لبراءة الطفولة، له جرأة غير متوقعة، لا يعرف شيئا اسمه الخجل أو التراجع، فهو مؤهل وقادر على فعل أي شيء، لائق أو غير لائق، مستحيل أو غير مستحيل. لا يوجد شيء في قاموسه اسمه عيب، أو غير مقبول، أو غير ممكن، كأن وجهه مطلي بالغاظ.

دوما ما كنت ضحية هجماته المباغته وغير المتوقعة، لديه رغبة كبيرة في إذلالني وجعلي مثار سخرية أمام الجميع، أنا دون غيري! يسخر من نبرة صوتي، ومن طريقة كلامي وجلوسي ووقوفني، ومن حركاتي وسكناتي، ومن جل ما أقوم به! لم أر طفلا آخر في مثل سنه له هذا القدر الكبير من الميول والغرائز الحيوانية المتوحشة. فلم أفلح أنا التلميذ المهذب والودود والمسالم في تجنب الوقوع في شرك السوء الذي غالبا ما كان هو من يقف من ورائه، ولم أقو على التعايش مع ما كان يفرضه علي من شروط، وما يتلفظ به في حقي، وتهديداته المتكررة، وتوعدهاته التي لا تتوقف. ولم أفهم إلى غاية اليوم لماذا هذا الكائن مطبوع على الكراهية والشر إلى هذا الحد؟ أعترف بقدرته الخارقة على اختيار الكلمات وبناء المعاني، فقد كان يمتلك موهبة فطرية في هذا المجال، لا يجاريه فيها أحد؛ يخلق شعارات وأغانٍ باحترافية بالغة تتجاوز ملكات من هم في مثل سنه،

ولو لم أكن أعرفه عن قرب لما صدقت أنه صاحب تلك الكلمات. دوما ما كان يعترض تلاميذ السنة أولى ابتدائي، ويردد: « سنة أولى يا البغولة، نهار الجمعة تجيكم الغولة».

أعتقد أن تعوده على الذهاب مع والده إلى الملاعب، واختلاطه بأجواء المباريات الساخنة التي تخوضها فرق حمرا عنابة واتحاد عنابة بكل ما فيها من تنافس وهرج ومرج الأغاني والشعارات والتهافتات الرياضية، هو سبب بروز تلك الموهبة لديه في سن مبكرة. كانت كلماته وشعاراته وأغانيه تنهل من منبع التهكم والسخرية والاستهزاء بالآخرين، وخصوصا الفرق المنافسة. ومن حظي العاثر وقصري المشؤوم أنه كان لي نصيب من ذلك، فقد كنت موضوعا خصبا تناولته بعض منها. ولم تلبث أن انتشرت كالنار في الهشيم، تقاذفتها الألسن، وبات الكثير من زملائي في المدرسة يحفظها عن ظهر قلب، بسبب كثرة ترديدها وتداولها على نطاق واسع امتد إلى رفاقي في الحي الذي أقطن فيه. وأضحيت بسبب تلك التهافتات والأغاني أشهر من نار على علم.

لم أعد أطيق الخروج من البيت فما بالك تواجدي في المدرسة، كرهت ذاتي، وكرهت المدرسة وكل ما فيها.

كان يجدر بوالدي اختيار اسم أفضل لي، فلم أحس بأدنى رابط حقيقي بين اسمي وشخصيتي، لما كنت أقف أمام المرأة وأحرق في ملامح وجهي مطولا، وأنحسس حواسي، علني أعثر على رابط ما، عبثا كنت أحاول. هذا الاسم غير المتداول الذي أطلقوه علي غصبا لا يشبهني إطلاقا. وكان جلال أول من انتبه إلى تلك المفارقة الغريبة، ومباشرة بعد اكتشافه العظيم حولني إلى مجرد أهكومة يتقاذفها الجميع كالكرة بين الأرجل، وأصبحت كلماته الاستهزائية تثقل كاهلي وتنفرنني من ذاتي. إلى درجة أنني كنت أرغب لحظتها في أن أخرج من جلدي، أو كنت أتمنى في قرارة نفسي لو ولدت بقوقعة عملاقة أشبه بقواقع السلاحف، أتمكن من الاختباء داخلها، كي تقيني من

قذائف التهكم والسخرية التي يمطرونني بها؛ والتي تبدأ في القسم، ثم تنتقل إلى ساحة المدرسة المزدهمة بالتلاميذ، وتتواصل خارج أسوارها، كما قد تمتد في بعض الأحيان إلى الحي الذي أقيم فيه؛ فلا يتورع زملائي من رشقي بتهكماتهم التي قد تصحبني من القسم إلى باب العمارة، أحمل محفظتي الثقيلة على ظهري، خافضا رأسي، حاثا الخطي، لا ألوي خلفي، ولا أنبس ببنت شفة. والجميع خلفي يردد متتالية تهكمية صارت كشريط مشروخ من كثرة ما سمعتها:

- «يا إدريس يا وجه التيس عمرك ما تركب في البيس..»

يا إدريس يا خشم الكبريس عمرك ما تروح لباريس..»

يا إدريس يا شعر الديس روح أسكن مع إبليس..»

الأمر لم يتوقف معي عند هذا الحد، سواء أكنت في البيت، أو في أي مكان آخر، حتى وإن لم يصل إليه أي طفل يعرفني، ويعرف حكايتي. فإن صدى أصوات هؤلاء الأطفال، وهم يتفوهون بتلك التهكمات، يظل يتردد على مسامعي بشكل مستمر، ومن دون انقطاع. كأن هناك من يلاحقني أينما ذهبت، ولا يتوقف عن الهمس بها في أذني.

ومن سنة دراسية إلى أخرى، صار اسمي إرثا ثقيلًا، أثر عكسيا على شخصيتي ومظهري وتعاملاتي مع الناس؛ فلم أكتف بتفضيل العزلة وتفادي الاختلاط بآترابي، بل أصبت كذلك بالتأثأة، وبت عاجزا عن النطق بصورة طبيعية. الأمر الذي زاد أكثر في إذكاء نيران السخرية والاستهزاء مني بشكل مهين ومؤلم جدا.

ومع ذلك كانت حياة الناس من حولي تتغير باستمرار، إلا حياتي أنا؛ ظلت ثابتة على عهدها، غارقة في الرتابة والروتين القاتل، وحتى وإن تغيرت، فإنما للأسوأ. كأنني في حالة عدم تعيين، لا أقوى على الفكاك من بين فكي كماشة السيئ والأسوأ المسننة، فلا حيلة لي وأنا أراها تفحصني وتقضي على كل شيء بقي حيا فيّ، ولا أحد بإمكانه

تخليصي من بين أسنانها الحادة. ألج بوابة المدرسة هرولة، كي لا يصطادني جلال، في الحقيقة كنت أحاول البقاء بمنأى عن المتاعب. بالقرب من سور المدرسة ألمحه بطرف بصري، يدفن ثلاث نملات فرنسيس حمراء وثلاث عرب سوداء، ثم يوارى عليهم التراب في الحفرة التي نبشها بأظفاره الطويلة السوداء. تصلني تعويذته وأنا أعبر بجنبه، كنت أتطلع من حولي، وأتوقف من حين لآخر، مررت بسلام دون أن ينتبه لوجودي، فهو متماه تماما مع ما يقوم به، لدرجة الانغماس والانفصال عمًا حوله، كمن يؤدي طقسا صوفيا. كنت أدرك الغاية من هذا الطقس المنتشر بين الأطفال الصغار في مرحلة التعليم الابتدائي، الهدف هو التسبب في إحداث حائل يمنع من حضور المعلمة إلى المدرسة، الإشارة الإيجابية تأتي عندما تعجز أي نملة عن الخروج من تحت التراب، عندها يعم الفرخ ويتعالى صراخ الأولاد ابتهاجا بتغيب المعلمة، وفي حالة حدوث العكس، يعم المكان صمت رهيب وضجر ثقيل، ويندفع الأولاد مخذولين إلى قاعة الدرس.

أما أنا فقد كنت مخذولا جدا، ليس بسبب حضور معلمتي نادية، بل بسبب حرمانني من مشاركتهم ممارسة الكثير من الألعاب والطقوس والهوايات التي أرغب فيها بشدة. الأولاد يكرهونني في المدرسة. ولا يرغبون في اللعب معي. لم أعرف ماذا يعني أن أعيش تجارب ومغامرات قد تتاح لمجرد طفل عادي؟ فلم أحظ في طفولتي بصديق حقيقي واحد يخفف عني وطأة حياتي البائسة، ويقاسمني بهجة الطفولة التي كبرت محروما منها. لا، لا أتذكر أي لحظة أو أي شعور شاذ لم يساهم في دفعي نحو الانطوائية وجري إلى هوة العزلة القاتلة.

استسلمت للوحدة وهجرت الجميع بمن فيهم أقرب المقربين مني. لم أشعر ولا مرة واحدة أن الأطفال الصغار يرغبون في بناء علاقات صداقة متينة معي، كل ما حدث من علاقات، كان عابرا ومات

في المهده. على الرغم من أنني كنت مستعدا للمضي بعيدا في هذا الشأن مع أحدهم، فقط لو كانت عنده رغبة، كنت أكثر استعدادا للبدل والعطاء.

نعم الوحدة كانت خيارى الوحيد المتاح آنذاك، وبسبب ذلك تعايشت على ماض مع فكرة البقاء بمفردى طوال الوقت، بينما من هم في مثل سنى ينعمون بكل ما تتيحه لهم الرفقة والصدقة من مزايا فقدت الأمل حتى بالحلم بها؛ كالذهاب للبحر صيفا ضمن مجموعة أصدقاء، والاستمتاع بالسباحة في الشواطئ الرملية أو الصخرية، الأمر الذى حرمنى من تعلم السباحة، فأنا إلى غاية اليوم لا أجد السباحة وأخاف البحر. ومشاهدة ذاك النوع الخاص من الأفلام في سينما إفريقيا، حتى وإن كانت تعرض حينذاك على شاشة تلفاز صغيرة باستعمال جهاز قراءة أشرطة الفيديو. لندرة ذلك الجهاز وقتذاك في البيوت، كان الشباب والمراهقون وحتى الأطفال الصغار يتهافتون على بعض قاعات السينما للاستمتاع ولافتكك لحظات من اللذة، ودوما ما كنت أتحسر عندما أسمعهم يكررون الحديث عن لقطات بعينها، لا زالت راسخة في أذهانهم، ويعيدون تصويرها بمتعة منقطعة النظر. والتسكع في ميناء الصيد، وترقب عودة بواخر وسفن الصيادين محملة بصناديق السمك، وممكن حينها الظفر ببعض الأسماك، والاستمتاع بشوائها على الجمر. وغيرها من المزايا الأخرى التي تتيحها الصحبة وشلة الأصدقاء، وفقدانها سبب لي جرحا غائرا لم يشفه الزمن. ونمى في داخلى ما يشبه فوبيا التحفظ بشكل مبالغ فيه، لم تتوقف عن التضاعف كحالة مرضية، تغذيها افتراضاتي المسبقة حول الآخرين.

فجل خساراتى وخيبتاتى المتلاحقة كانت بسبب ثقتى المفرطة في أناس سبق وعرفتهم ثم خذلونى، دونما اعتبار لأي شيء كان بيننا، لم أعد أتق في أي كان، في جل الناس، في ميولاتهم وبواعثهم وأهواهم، وكل شيء آخر.

بت أنظر بعين الريبة للجميع دون استثناء، كل شيء بالنسبة لي
أضحى محل شك، أشك حتى في نفسي. لا أنفك عن النظر وإعادة
النظر، والتحصيص. أنظر أمامي، أستدير خلفي، ألتفت على يميني ثم
على شمالي. وأحسب للناس ألف حساب وحساب.

لم أعد ذلك الأعمى والمغفل الذي سبق وكنته، الخيبات المتكررة
في الناس قوت عظمي، وقلصت من اللدغات التي تأتيني من جحر
الثقة والاطمئنان المبالغ فيهما، لكنها في الوقت ذاته زادت في اتساع
الفجوة بيني وبين الخلق.

أنا مرتاح في برج العاجي، لا يهمني ضجيجهم وزيفهم، برد
الوحدة ووجعها أفضل من دفء نار الخلق، فعاجلاً أو آجلاً، سيأتي
يوم وتحرقك، لا أحد غيرك سيشفق عليك. حتى رائحة لحمك المشوي
ستسيل لعابهم. أما رماد عظامك فستدروه رياح أنانيتهم، لا تترك أثراً
لك، عندها ستغدو نسياً منسياً، لا أحد سيتذكرك أو سيذكرك بخير أو
بشر، كأنك لم تكن!

بالنسبة لي فقدت كل الأشياء معانيها، لم أر أي جدوى من أي
شيء كان أو سيكون على الإطلاق. لقد عشت حياة فارغة وباهتة
وغير دافئة، حياة بلا معنى أو طعم، حياة ميتة لم أجن أي فائدة
أو متعة من خوض غمارها ومجابهة أمواجه العاتية. حياة نصفها
مشاكل وضغوطات، قابلت فيها أناساً على قدر كبير من السوء، لم
أحظ معهم بأية أيام جميلة، يمكن أن أتذكرها وقت الشدة كزاد
يمنحني القوة والصلابة للمواجهة والمواصلة.

أعتقد أن حياة خالية من معاني الأشياء والتواصل والذكريات
الجميلة هي موت يلبس ثوب الحياة. كنت أشبه بالأموات، الفارق
فقط أنني لم أدفن في حفرة تراب، كأن جسدي نظف وتم حرقه
بالفورمالين ليحافظ على بقائه دون أن يتعفن، الجميع يعتقد أنني
حي، لكن في حقيقة الأمر كنت ميتاً أرزق.

النحس والتوتر ظلا يلازميني من طفولتي المشتتة والمفككة،
عشت خارج المكان الذي لفظني، وخارج الزمن الذي استنزف
طفولتي. كم هو قاس أن تحيا بمرارة غربة الأمكنة وتنكرها لك، وأن
تشهد لحظة احتضار طفولتك وموتها في داخلك. فقد كنت مثل
زهرة، ذبلت أوراقها، وتفسخت ألوانها الزاهية مبكرا، لذا تنتابني
مشاعر الكآبة وعدم الرضا دوما.

أحيانا حين يكون العدم أو الوجود على هذه الحياة سيان، لا
تنتابك أدنى رغبة بالتمسك بالحياة، تفكر حينها أن الموت هو
خلاصك! حقا هو الطريق الوحيد الذي سيجعلني أتوقف عن الشعور
بالسوء، وارتاح من زيف من هم حولي.

أحيانا عندما أستسلم للخوف والقلق، أتمنى في قرارة نفسي أن
ترعد السماء، وتمطر حجارة، تسقط على رؤوس هؤلاء الأولاد الصغار
الذين عكروا صفو حياتي وأحالوها إلى جحيم، استحالت المدرسة
إلى وكر ثعابين.

أرغب بشدة في أن ترجمهم السماء انتقاما لما ألحقوه بي من
أذى. أنا في عجلة من أمري، لن أمهلهم لحظة قط، لطلب العفو، لن
أغفر لهم ما تسببت فيه عجرتهم ورعونتهم وسفالتهم ونذالهم.

أرغب في أن أرى دماءهم متدفقة كالأنهار، أراهم ممزقين إربا
إربا كالأوراق السرية المتلفة في ماكينات القطع، أرى أشلاءهم
مشتتة كالطيور والحيوانات النافقة.

أرغب في إخماد النار التي أشعلوها في داخلي. حينها ستعتريني
فرحة غامرة، وسأغرق في نشوة مجنونة لا حد لها، سأصرخ بأعلى
صوتي، سأحتفل، سأرقص بهبل، وسأطرب وأغني. لن أصحو من
ثمالي تلك، ولن يتمكن أي أحد من إيقاف بهجتي اللذيذة، وإفساد
سعادتي الوليدة....

المفكرة الصغيرة ذات اللون الأخضر الغابي

بت عاجزا عن حماية نفسي من نفسي! أشعر بذاتي تتحطم من الداخل، كل ما حدث وما زال يحدث معي كان يهْدني هَدًا، يهدم إنسانيتي ويحولني إلى كائن ميت بلا إحساس، ما بقي مني سوى زفرات وشهقات معدودات، عدا ذلك بت لا شيء يذكر.

تداعى روعي بجواري، أراني ألتقط أحجارها المتهمة لكي أبني بها شاهد قبري، علني أحظى بذات جديدة في حياة أخرى، هي ليست نفسها ذاتي السابقة بلا أدنى شك! وحتى وأنا على عتبات النهاية كنت أبحث عن مكان آخر يؤويني، وينسيني غربتي في هذا الفضاء البائس، الذي عشت فيه عزلة أبدية، نهاره كليله، كانت عزلة كئيبة لا مكان فيها للفرح. ومن عزلتي تلك شرعت كل أبوابي على المغامرة، حتى وإن كانت مقامرة بحياتي، ليس لدي ما أخسره طبعًا. علني أحظى بحريتي وأكون طليقا كطائر حر يحلق في الفضاء الأرحب.

عزلة ظالمة وخارجة عن خياراتي، لا إرادة لي فيها، فقد كنت عاجزا ومقيدا بخضوعي لعوامل أكبر من درجة تحملي.

كنت أشك في كل شيء، وكانت رغباتي غامضة ومرتبكة، فأنا إنسان هش وناقص، أعيش بذات معطوبة ومجروحة وجارحة في الآن ذاته، أعيش مع التباسات شتى وشخصيات متعددة، لا أرغب في

استرجاعها أو استرداد صورها المتباينة والمتناقضة تارة، والمتماثلة والمتطابقة في أطوار أخرى! لا أرغب في ذلك ولو ذهنيًا. الأمر يفوق قدرتي على التحمل.

كما لا أرغب في الاعتراف بانزعاجي وتضايقي من الرفض الذي لاقيته ولا زلت ألقيه باستمرار، لا اعتقد أنني سأتمكن من نسيان ذلك الماضي والأمس القريب والبعيد. كما لا أمتلك أدنى رغبة في كشفه وتفكيكه وفضح خفاياه. وإن فعلت هل ستحظى روعي المتشظية بالسلام الداخلي والسكينة؟

لو كانت كذلك سأعري زيف الناس ولن أذخر جهدا في كشف هوة الانفصام والانفصال بين ما يدعونه من قيم إنسانية وأخلاق نبيلة وبين سلوكياتهم العنصرية المقيتة. حينها سأعري وأفضح واقعا مسكوتا عنه ووجهًا قبيحا مخفيا خلف قناع، يأبى جل الناس كشفه، فظهوره يزلزل ذاتهم وكيوناتهم الفردية والجمعية الراسخة والثابتة منذ دهور أبدية.

ومع كل تلك الاضطرابات التي رافقتني ما زال كل من عرفتهم يتعاملون معي باعتباري مثارا لسخريتهم، كنت عرضة لاستهزاء وتهكم الجميع، خصوصا تعبيراتهم المشينة وغير اللائقة في حقي. وعادة ما تتسبب تلك الأقوال العابرة والسلوكيات غير المحسوبة في نفوري من كل شيء، وفقدان شهيتي جراء الاضطرابات النفسية الناتجة عنها. غالبا ما كنت أكرر غسل يدي وتنظيف أعضائي بالماء مرات عديدة في اليوم. كلما كانت تسوء حالتي النفسية كنت أعتقد أن والدي سيطردها كلنا من البيت، فقد عشت وما زلت معاناة حقيقية بآتم معنى الكلمة.

كان عقلي لا يتوقف عن اجترار الأشياء السلبية والتفكير في الاحتمالات السيئة لأفعال والدي وقراراته المرتقبة، الكثير من تلك الأفكار المرعبة والمخيفة كانت تطاردني في يقظتي ونومي. أحس

دوما أنني منهك لأنني استنفدت جهدا نفسيا وعاطفيا عظيما. وفي بعض المرات لا أرغب في الخروج من تحت مرش الماء الدافئ، أبقى طيلة ساعات طويلة من الزمن، لا أبه لصراخ أبي وتهديداته باقتحام حمام الاستحمام. حتى وان رغبت بالخروج لا أستطيع، أخاف من مواجهة القلق والتوتر.

لا أمتلك الحيلة في إيقاف هذا الوضع أو التحكم فيه، إنه مريع ومنهك في حقيقة الأمر بدرجة لا يمكن تصورها. أشعر بقلق متعاطم، مأتاه عجزني عن التعامل مع ما يعتريني من اختلالات وهواجس، الأمر الذي يضاعف من تعاسي وعذابي وشقائي.

بت أشعر بالخجل من التماس المساعدة من قريب أو من طيب، لأنني أدركت متأخرا فداحة وحدتي القاتلة.

عندما فرغت من قراءة صفحات الدفتر والمفكرة، أصبت بالدهشة والذهول في ذات الوقت، واعترتني حالة من الخيبة والصدمة مما خطه إدريس في متنها وهامشهما على حد سواء، فهو من شدة عجزه عن الاندماج مع الآخرين وفشله في التعايش مع واقعه، أفرغ جَمَّ سخطه وغضبه عليّ أنا، والده، كأنه لم يكتف بالتدوين في المتن، بل سوّد بكلماته الفائضة عن المعقول هوامش الصفحات!

ها هو ذا يُعَلِّقُ فشله وعجزه على مشجب الآخرين، ويلقي بكل اللاتمة عليّ أنا والده، دون خجل وبلا أدنى تفكير فيما ضحيت به لأجل أن يحيا حياة كريمة، أو تراث لفهم أغوار حالته المعقدة.

كما عزى ذلك إلى بعض زملائه ومن عرفهم من زمن الطفولة، مستبعدا نفسه من تحمل أدنى مسؤولية فيما آلت إليه حياته من ضياع وانقطاع عن كل ما يحيط به.

من غير المنطقي أن يعيش الإنسان العمر كله في عزلة عن التفاعل، أو التواصل والتعامل مع بيئته، ثم يأتي في النهاية وبكل

بساطة ليلقي باللائمة على الآخرين، ويعفي ذاته من أي مراجعة أو مساءلة!

فاجأني إدريس وصدمني بالصورة التي رسمها لي في ذهنه، وأنا ذا كنت أعتقد مخطئاً أنه كان يتجنب خوض الحديث معي في الشؤون التي تخصه بدافع الخجل والاحترام والتوقير الذي يكنه لي، وحتى وإن كنت أنا المبادر، كان يقتصد قدر الإمكان في ردوده، ولا يلبث وأن ينصرف.

لم أكن أتصور في يوم من الأيام بأنه يحمل في داخله كل هذا الغلّ تجاهي! في حقيقة الأمر، كلما كنت أستمر في قراءة ما كتبه، كانت دهشتي تتعاظم وخييتي تتضاعف. كما أنني كنت أجدني بعد قراءة كل كلمة أكتشف شخصاً آخر، مختلفاً، تماماً عن الذي عرفته، وعاش معي تحت سقف بيت واحد كل هذه السنين. بعد أكثر من ثلاثة عقود ها أنذا أكتشف بكل خيبة، وحسرة، وتأسف أنني لا أعرف ابني الذي هو من صليبي. وأدرك متأخراً بعد مضي كل هذا الزمن كم كنت مخطئاً في فهمي كثيراً من الأمور والأشياء، وها أنذا أفق على حقيقة مؤلمة وموجعة بأنني كنت أنا هو الشيطان الرحيم سبب كل الكوارث التي حلت بالبشر، وآدم الضحية هو ابني، وقد تسببت في طرده من الفردوس إلى جحيم الأرض؛ هكذا صورتني كلمات ابني إدريس، هكذا حاكمتني، هكذا جلدتني، هكذا أدمتني!

نهضت في أوج قبيلوتي مفزوعا على وقع رنين الهاتف الذي صدع أذني، أرغب بشدة في إيقاف اشتراك هذا الهاتف اللعين، بات يزعجني ويستثيرني أكثر من أي وقت مضى، لا فائدة ترتجى من وجوده، غير أنني في نهاية كل شهر أذهب مكرها إلى شركة الاتصالات العمومية وفي يدي ورقة الفاتورة. أدفع بانتظام ثمن الاشتراك دون جدوى، ضرره أكثر من نفعه، لم يبق الكثير على نهاية هذا الشهر، حينها سأوقفه من غير رجعة، هذه المرة قررت، ولن أراجع على قراري الفصل مهما كانت الظروف، لن أستمع لأي كان، ولا تهمني كل المبررات التي ستسوقها سكينه تباعا من أجل إقناعي بالعدول عن رأيي، أعرف أنها تتسلى بالهاتف في الثثرة مع أختها، وفي استقبال مكالمات الأولاد وفي تذكيري بقائمة المشتريات غير المنتهية لما أكون خارج البيت.

كنت أتأفف من تحت اللحاف، وأرغي وأزبد متذمرا، إلى أن نادتني سكينه من غرفة الاستقبال:

- عبد القادر إن صديقك بشير ميزيغاش ينتظر على سماعة الهاتف، وقد طلب استعجالك.

- أووووف، هذا الرجل سكن في حياتي، كلما أدلف خارج البيت إلا ويحاصرني أينما ذهبت وحللت. لم يكفه ذلك، وها هو اليوم يلاحقني إلى داخل بيتي. ما أشد ابتلائي وحظي العائر، فمن مثله

لا يأتي الخير، من ورائه غير الهم والغم، أكيد فهو يتصل من أجل مصلحة له أو لأحد أبنائه المتمدرسين، أو لتجزية الوقت كعادته، فهو لا يمل ولا يكل من تتبع عورات خلق الله.

رفعت السماعة متثاقلا عن مضض، وصلني من الجهة الأخرى صوته شاحبا وباهتا:

- مساء الخير يا عبد القادر.

- تريح، نهارك زين.

- أرجو أن تشغل التلفاز، وتفتح على قناة الجزيرة الإخبارية.

- ما الداعي لذلك؟

- شغل التلفاز وستفهم.

أردت أن أستفسره، بصراحة لم أفهم مبعث هذا الطلب الغريب. لكنه استعجلني بالذهاب، لأن البرنامج بدأ والوقت سينفذ لو استغرقتنا في الشروحات.

مسحت بعيني الغرفة بحثا عن الرمود كونترول، وقع بصري عليها على حافة الكنبه مرمية كيفما اتفق. دوما أعاتبهم على تلك العادة السيئة، لا جدوى من تكرار الكلام، فمن اعتاد على الفوضى والإهمال هذا هو ديدنه دوما، ذيل الكلب يبقى أعوج مهما حاولنا تقويمه. مددت يدي بسرعة لأخذها، وتلقائيا ضغطت على زر التشغيل بلهفة ظاهرة. غيرت القناة، هناك برنامج يعرض الآن على الشاشة، تظهر امرأتان بينهما طاولة مهترئة، واحدة سافرة والأخرى منقبة، الأولى تسأل والأخرى تجيب.

ركزت بصري على المرأة المنقبة بالسواد وهي تجيب عن أسئلة المراسلة الحربية بصوت ممزوج ببحه، يظهر من كلامها أن الندم يعتصرها على تفريطها في حياتها السابقة في كنف أسرتها بتونس. في حين أن الصحفية كانت من حين لآخر تحرك رأسها كدليل على متابعتها لكلام المرأة، كما كانت تعض على شفيتها دون أن تنتبه، وعيناها

ضائعتان من شدة تفاجئها أو صدمتها من الردود غير المتوقعة التي تلفظت بها المرأة المنقبة. هذه الأخيرة اعترفت بخيبتها الكبيرة مما وجدته، مقارنة بما كانت تنتظره وتتوقعه عن دولة الخلافة، فقد عدت ما فرطت فيه في سبيل خدمة دين الله وتطبيق شرعه.

من رفرقة عينيهما، الجزء الوحيد البارز وسط السواد الذي يلف جسدها ككفن أسود، يظهر أنها ذات جمال وحسن. تكلمت عن زوجها؛ يا إلهي، قالت: « إدريس الجزائري»، لما تلفظت بهذا الاسم؛ تسمرت في مكاني، تصلبت شراييني، استبد بي هلع عظيم، تجمدت الدماء في عروقي. اعترتني حالة ذهول لا يمكن وصفها، يا ربي سمعنا الخير، ومن أين يأتي الخير؟

لا أعتقد أن هذا النوع من الكائنات مصدر للأخبار المفرحة والمطمئنة!

زاد فزعي، حاولت أن أهدئ من روعي؛ ممكن كانت تقصد شخصا آخر، ليس شرطا أن يكون ابني، هناك الآلاف من خلق الله يحملون ذات الاسم. لكنها أردفت لما سألتها مرافق المراسلة الذي كان يرتدي بزة عسكرية خضراء اللون. في الحقيقة لم أنتبه لوجوده، إلا بعد تحريك عدسة الكاميرا صوبه، استفسر عن كيفية التحاقها بمعسكر دولة الخلافة.

بعد تردد أخبرته عن نشوء علاقة بينهما على الفايسبوك، كانت هي تقيم في تونس العاصمة وهو يقطن في مدينة عنابة. لما ذكرت كلمة عنابة أيقنت بما لا يدع للشك، أن المقصود من كلامها هو ابني إدريس لا غيره. بالكاد كنت أقوى على الحركة، فقد كانت أعضائي تستجيب لي بصعوبة بالغة، حاولت الاقتراب أكثر من الشاشة، وفتحت عيني المتعبتين على آخرهما، علني أعرف مصير ابني المفقود. قالت:

- التقينا في بن غردان التونسية بعد أن قدم هو من الجنوب بطريقة غير شرعية، حيث وجدنا هناك من يرشدنا إلى شخصين، أقمنا

عندهما يومين بلياليهما، ثم تم نقلنا عن طريق المسالك السرية إلى صبراتة الليبية، حيث وجدنا من كان ينتظرنا. ثم سلمونا إلى مجموعة أخرى، وضعونا مرة أخرى في بيت واسع طيلة أيام، أخذوا هواتفنا وكنا محل مراقبة مشددة، إلى أن نقلونا في سيارة سياحية إلى مدينة سرت الليبية، طيلة الطريق كان الرجل الذي يجلس بجانب السائق، يتلقى التعليمات عن طريق الهاتف. لم نصادف أدنى عائق طيلة رحلتنا تلك، كانت السبل ممهدة والطرق آمنة جدا. لما وصلنا إلى سرت التي كانت تسيطر على شطر كبير منها دولة الخلافة.

قاطعتها المراسلة:

- هل تم زواجك في تونس أم في ليبيا؟

- اجتمعنا بالقادة العسكريين وبمجموعة من الشيوخ الشرعيين في سرت، حيث عقدوا قرانا أنا وإدريس.

- كيف كانت إجراءات زواجك، أو كيف كانت عقود الزواج داخل دولة الخلافة؟

- كان المهر سورة الأنفال وسورة الملك، في حين عقد بالتوازي العديد من عقود القران الأخرى على وافدات جديدات، أكثرهن تونسيات ومصريات، كما كانت هناك حبشيات وإفريقيات ونسوة من مختلف الجنسيات حتى الغربيات لكنهن قليلات جدا. منهن من كان مهرهن دنانير ذهبية صكتها دولة الخلافة، أو مصحفا، أو كلاشينكوف، أو حزاما ناسفا، أو تفسير سورتي الكهف ومريم. هناك من رفض الزواج.

- ما مصير النسوة اللواتي أبين الزواج من رجال دولة الخلافة؟

- الشيوخ أخضعهن قسرا، لدواعي الجهاد والبذل في سبيل الله. وأي امرأة كانت ترفض تتهم مباشرة بالردة. لذلك كلهن يخضعن في النهاية لرغبة الشيوخ خوفا من تنفيذ حكم الردة، وهو الإعدام بطلقات نارية.

- وهل كانت هناك عقود رسمية أم أن الزواج شرعي فقط وغير موثق؟

- سلمونا العقد عليه ختم دولة الخلافة، كان تحت عنوان: عقد النكاح، دوّنت عليه كل المعلومات عني وعن إدريس وعن المهر وعن الشاهدين، فقد شهد على زواجنا كل من زكريا الموريتاني ولخضر التونسي.

- كيف كانت حياتكن أتنن النسوة في ظل المناطق التي يسيطر عليها التنظيم؟

أجهشت بالبكاء، ثم استرسلت في الكلام بصوت يشي بدرجة كبيرة من الإحباط:

- مررنا بأوقات عصبية، وعشنا مآسي وأوجاعا لا حصر لها، كنا نعامل بقسوة منقطعة النظير، وكانوا يعزلوننا فوق بعضنا البعض كالحيوانات في مضافات؛ عشنا فيها تجارب وصور مؤلمة وموجعة، من القسوة والانزعالية وانعدام المشاعر. عندما كنا نتعرض لظروف قاسية يفرضها علينا الحصار أو الهجوم المباغت للجيش والميليشيات التابعة له، كانوا لا يأبهون للأطفال والنساء، ما يهمهم هو أن ينفذوا بجلدهم، كانوا يستخدموننا كدروع بشرية نحن النساء والأطفال أمام قصف الجيش من دون رحمة أو شفقة. حتى أننا كنا في أوقات الحصار نتغذى على الماء والسكر لأيام بطولها بينما ثلجات القادة وزوجاتهم ومن يليهم في الرتبة والدائرة المقربة منهم مليئة بالغلل واللحم والأرز!

- هل سبق وقيمت بعمليات جهادية لصالح التنظيم؟

بعد تردد تجيب:

- بعض العمليات فقط.

تواصل الصحفية سؤالها مرة أخرى عن ذات الموضوع:

- حديثنا عنها؟

تخفف رأسها، تنظر إلى الأسفل واليسار، ثم إلى الأعلى واليمين وهي صامتة لم تنطق بكلمة. تلك اللحظات مرت بالنسبة لي كدهر، شعرت باستياء كبير، ظللت مسددا نظرتي الجامدة إلى الشاشة باشمزاز وعيناوي مسمرتان في وجهها المتوشح بالسواد في انتظار حركة شفتيها التي ستكسر بها ذلك الصمت المزعج الذي كاد أن يخنقني. ثم ها هي تواصل حديثها بصوت منقطع يشي بخوف ممزوج ببعض الندم:
- غزوة مراكش.

كلمتان متقطعتان وثقيلتان، تلا ذلك مرة أخرى صمت القبور. فركت يدي ثم مؤخرة رقبتني على حد سواء، شعرت بالقشعريرة بسبب انطباع غامض اعتراني فجأة. بيد أنها أضفت بعد أن ألحت عليها الصحفية على مواصلة الحديث، بينما كنت أسمع بذهول محاولا تهدئة انفعالاتي:

- كانت شوارع وسط مراكش في مساء ذلك اليوم تعج بالناس، والمطاعم والمقاهي مليئة على آخرها. لم يكن من باب الصدفة اختيار تلك الليلة الصيفية المعتدلة حيث اجتمع الناس لمشاهدة مباراة مهمة لدوري أبطال أوروبا على شاشات كبيرة وضعت خصيصا للحدث. قبل ليلة التفجير كنا في ساحة لَفَنَّا، في الطريق لفت انتباهي طلاء المساكن والمباني الإدارية والفنادق باللون الأحمر الباجوري، كما استغربت مبالغة وجرأة جمهور من النساء والفتيات على اعتلاء الدرجات النارية وسياقتها في طرق وشوارع المدينة دون أدنى تحرج. كانت ساحة لَفَنَّا ليلتها تعج بالنفوس، شققنا الصفوف البشرية كأننا مستعجلون، ومررنا بمحاذاة حلقات واسعة وأخرى صغيرة، لم نستجب لنداءات شيخ كان يحمل ثعبانا عظيما على ظهره ويدعو الوافدين على الساحة والسياح إلى مداعبة ثعبانه والتقاط الصور معه. واصلنا طريقنا غير أبهين وسط الاكتظاظ، فيما كانت أجساد المشاة تكاد تلتحم ببعضها البعض، اختلطت الأصوات مع

روائح البهارات والأطعمة والأسماك المشوية وفواكه البحر. ولما كنا أنا وإدريس موشكين على اجتياز آخر مطعم للأسماك والمأكولات الشعبية، رمقني بنظرة مقتضبة سرعان ما أدركت مغزاها، ثم التفت مباشرة إلى الأطباق المرصوفة على الطاولات، شعرت برغبة شديدة في الأكل، فقد كنت أستلذ رائحة الطعام المنبعثة من تلك المطاعم المتتابة، والتي يظهر أن وجباتها لذیذة المذاق. ما كان عليّ إلا أن أومأت له برأسي موافقة. لم يكن إدريس طيلة بقائي معه في مراكش يتكلم كثيرا، فنادرا ما كان يفتح فمه، إذ غالبا ما كان يخلد للصمت ويغرق في حالة من الشرود، في ذلك الشرود تجده لا يشعر بما يحيط به، وينقطع تماما عن كل من حوله. ما جعلني ألتزم الصمت في غالب الأوقات، ولا أتكلم إلا نادرا أو كلما دعت الضرورة، كي لا أزعجه بثرثري وأفسد عليه تركيزه. بعد وجبة العشاء قصدنا أنا وإدريس مقهى فرنسا، طبعا كنت سافرة الوجه كي لا أثير إذ ذاك أدنى شك، كما كان إدريس حليق الوجه، في الحقيقة لما حلق لحيته بدا لي مختلفا بعض الشيء، لكن حافظ على النظرة ذاتها عدا مسحة الحزن التي طبعت قسما وجهه. اخترنا ليلتها طاولة تمنحنا رؤية كل زوايا المقهى بأريحية، كان إدريس يمسح بعينه المحجوبتين خلف نظارة سوداء المكان مسحا شاملا، هذه النظارة تضي عليه بعض الغموض، خطر ببالي أنه قادر على إثارة انتباه المخبرين السريين. كان يترصد بعينه وأذنيه رواد المقهى وهمساتهم وسكناهم، ويتبع بعينه حركة الناس خارج المقهى في ذهابهم وإيابهم، كأنه يحسب أنفاسهم ويعد خطواتهم عدا. بينما كنت أرتشف من كأس النعناع وانظر إلى الطاولات المحاذية لنا بحذر، يظهر أن من يجلسون على الطاولات من كل الأجناس والأعراق، بما فيهم الذين يتقاطرون على مراكش الحمراء من كل أنحاء العالم لارتكاب المعاصي والمحرمات؛ على شمالي لمحت امرأة تجلس لوحدها وتحسني الحليب بالشوكولا وعلى طاولتها علبة سجائر وقداحة، وأمامي يظهر رجل يقرأ جريدة

وعلى طاولته مجموعة كتب، في حين على شمالي كان هناك زوجان، امرأة برفقتها رجل على طاولتهما صحيفة مثلجات وكوب عصير الكوكتيل الطبيعي، وبالقرب منهما لمحت شابين يتحادثان ويتضحان ويقهقهان ويتغامزان في الوقت ذاته، لم اطمئن لوجودهما، حاولت الاستماع إليهما، ممكن أن يكونا مخبرين سرين. ولكنني لم أستطع فك شفرة لهجتهم.

في الليلة الموعودة كنا خمسة أنا وإدريس وثلاثة آخرين؛ اثنان منهم من مقاتلي التنظيم والثالث من خلاياه النائمة هنا في مراكش. ها هو إدريس يبدو متوترا مثلي. وفجأة ذهب، وقبل أن يذهب أخرج صورة مطبقة من جيب بنطلونه الضيق، وأعطاني إياها. كانت صورة أمه، امرأة بيضاء تتمتع بقدر كبير من الجمال، بشعر كتسنائي وعيون زرق كفصوص اللازورد، لفرط بهائها وسحرها تبدو كأميرة أسطورية. كم كنت أحسدها في قرارة نفسي، وأتمنى أن أحظى ولو بجزء من ملكة جمالها. وبعدها نظر في عيني لحظة زمن هاربة، مرت كلمح البصر، لكن كثافتها كانت كالدهر بالنسبة لي، وأظن أن الشعور ذاته اعتراه. اعتقدت أنه سيقول لي شيئا ما، أو ربما سيوصيني بأمر ما، لكنه لم يتفوه بأي كلمة، ولم يقل شيئا على وجه الإطلاق. ذهب وفقط. بينما أنا شردت وانفعلت كثيرا، ورغم فداحة كل ذلك، وقسوته ووطأته على نفسي حاولت أن أتماسك وأن أخفي تلك المشاعر التي انتابتنني فجأة. بقينا نحن الأربعة نترقب من مكان بعيد بينما انطلق إدريس وسط الجموع، رأيته يمشي الهوينى، كان يلتفت مرتبكا يميناً وشمالاً، ثم شرع في المشي هرولة، ما هي إلا دقائق حتى وصل إلى مقهى فرنسا. كانت الخطة تقتضي تفجير أكبر عدد ممكن من الناس. كنت قلقة بعض الشيء من سائح شاب، كان في وسط الناس يلتقط صوراً للمبنى الذي كنا نقف بمحاذاته، لا أنفك من مراقبته، وقد لا حظ علي أحد الإخوة توتري. إذ ذاك ما هي إلا لحظات حتى سمعت انفجاراً ضخماً، وبدأ الجميع بالجري في اتجاهنا

وهم يصرخون ويبيكون، وعندما نظرت شعرت بلفح حار على عنقي، وسط الدخان الكثيف ورائحة الحريق التي ملأت المكان، كانت الجثث وبقايا الأعضاء المتطايرة في كل مكان، كما هناك العشرات من الناس ملقون على الأرض مصابون بجروح خطيرة أغلبهم سياح ومرافقون وشباب. لم أشعر في حياتي بمثل هذا الخوف الغريب الذي سيطر عليّ من هول المنظر وصدمة جموع الناس من حولي؛ من كيف تحولت سهرة مشاهدة مقابلة في كرة القدم إلى ليلة رعب. اختلطنا بالناس وكنا نجري مثلهم، الجميع كانوا في حالة من الهلع، وقد حدث تدافع كبير عند الشارع الرئيسي الذي كان يفيض بالناس، لذلك فضلنا الانعطاف إلى شارع جانبي، ومنه نزلنا من درج إسمنتي، الرجال في المقدمة وأنا وراءهم، التفت آخرهم إليّ وقال: «أسرعي وإلا ستلحق بنا الشرطة». ثم سلكنا طريقا فرعية أخرى كي نتواري في الظلام الذي هبط على المدينة، انحدرنا في الطريق دون أن نتحدث بشيء، سيطر عليّ الخوف من كلامه، كنت مضطربة، أسرعت الخطي كي ألحق بالمجموعة، شعرت كأن الشرطة خلفي تطاردني. وفي طريقنا صادفنا حانة أو علبة ليل مفتوحة، أشار إلينا أحد مقاتلي التنظيم بالدخول، ما كان عليّ إلا أن أطيع وانصاع لرغبته كخيري، وإلا سيكون مصيري القتل ذبحا. هذا القدر مذ وصولنا إلى مراکش صار في غياب إدريس يرميني بنظرات تقطر عفونة وشبقا، توترت أعصابي تماما، وصرت أرغب في رجم هذا السافل. كنت أتفادى النظر صوبة، فكلما يحدث وأن تتقاطع أعيننا إلا وكنت أشيح عنه. لكن هذا النذل لم يفهم، وظل يكرر من جديد حركاته البائسة والمقززة بطريقة فجّة جدا، دون كلل أو ملل، كأنه مراهق لعين. زاد اشمئزازي من سلوك هذا المسخ، يا إلهي لم يحترم أنني امرأة متزوجة! كنت أتساءل من أي طينة هذا المخلوق؟ لو كان الأمر بيدي لغمسته في مرجل يغلي إلى حد الموت. لما دخلنا إلى تلك الحانة وجدناها أشبه بعلبة رقص، صخب الموسيقى والأضواء الملونة المتقاطعة والمتراقصة،

والغناء والرقص المختلط، ورائحة الخمرة تملأ المكان. أخرج واحد من المقاتلين مسدسا، وراح يطلق كيفما اتفق في كل اتجاه، بينما الرجلان الآخران اللذان كانا بالقرب مني أخرجنا سكاكين حادة، وراحا يطعنان ويقران بطون كل من يصادفهما. قمت بدوري بكل بعض الجرحى والمصابين الذين تعثرت بهم في طريقي، وحتى أثبت ولائي أكثر رحت أنادي: الله أكبر.. الله أكبر.. هذا باسم الله يا فجرة. وخلال دقائق معدودة قتل أكثر من عشرة أشخاص وعشرات المصابين قبل أن تقتل الشرطة لاحقا المقاتلين الثلاثة بالرصاص. بينما تمكنت أنا من الفرار والاختلاط بجموع الناس قبل أن تغلق الشرطة الطرق القريبة وتخلي المنطقة من الناس. وفي الطريق رأيت شابة تترنح، كانت تنزف من رقبته وفمها، عدت القهقري، ثم دخلت ممرا جانبيا مختصرا، لكنني هلعت من رؤية مجموعة من السياح الذي صادفتهم يجرّون مرعوبين في كل الاتجاهات على غير هدى، وكان كثيرا منهم يبكون ويواسون بعضهم. لما تجاوزتهم انتبهت لجموع من الناس، انجرفت مع الحشد...

بينما تلك المرأة المنقبة مازالت تسرد تفاصيل حادثة الهجوم، حتى ظهرت كتابة في شريط أحمر أسفل الشاشة، أحاول أن أقرأ الكلمات التي تظهر بحروف صغيرة إلى درجة أنني تحسست الطاولة بحثا عن النظارة.

لما وضعت النظارة على عيني بدت الحروف أقرب وظهرت بحجم أكبر من ذي قبل. كاد يغمى علي عندما قرأت الاسم الثالث في قائمة القتلى الذين راحوا ضحية تفجير مقهى فرنسا في مراكش: «3 عبد اللطيف الركراكي».

ضربت جبهتي بكف يدي اليسرى من هول الفاجعة، ورحت ألطم رأسي بكلتا يديّ، ثم بدأت في ضرب رأسي على الحائط حتى أحسست بدوار شديد أفقدني الوعي، لم أستيقظ منه إلا في قسم الاستعجلات في مستشفى ابن سينا. لما فتحت عيني أول ما رأيت

سكينة وسعيد واقفين حول السرير. ثم غبت عن الوعي مرة أخرى؛ كنت أراهما طفلين بملابس العيد الجديدة معا، كما لم أراهما من قبل مجتمعين في مكان واحد، كانا لحظتها يضعان اليد في اليد، الفرحة والبهجة تغمرهما. حاولت الاقتراب منهما لطبع قبلة على خديهما البضين، لما انحنيت لفحت أنفي رائحة غريبة! رجعت أدراجي إلى الخلف ثم رفعت رأسي وحدثت فيهما مجددا، يا إلهي أرى جسديهما محترقين ومفرغين من اللحم. على الرغم من ذلك المشهد المفزع، حاولت الاقتراب منهما مرة أخرى، ومغالبة ذلك الألم الذي عصف بي لحظتها، كلما كنت اقترب أكثر كانت الرائحة تكتسح المكان، كان الألم يعتصرني أكثر. لما أصبحت على مسافة قريبة جدا منهما، توقفت وحاولت الإمساك بيديهما ومداعبتهما بحنو، بيدي اليمنى أمسكت يد عبد اللطيف وبيدي الثانية شددت برفق على يد إدريس، بدت يداهما مختلفتين عليّ، غالبت دموعي ووجعي. أحسست فجأة أنني أقبض على الفراغ، لما انتبهت لم أصدق هول ما رأته عيناى، اكتشفت أنهما استحالا إلى رماد. بقيت بين اليقظة وفقدان الوعي؛ جسدي مبلل بالكامل بفعل العرق الذي لم يتوقف عن السيلان من كل مسامات جسمي، التي أشعر بها تتسع وتتسع حتى تستحيل إلى فجوات هائلة. أحس بنبضات قلبي المتصاعدة كأنها تريد أن تخترق صدري الذي لم يعد يقوى على التحمل أكثر، وأنفاسي متقطعة ومختنقة كأن رئتي معتلتان أو كأن هناك من يجثم فوق صدري بكتلته العظيمة.

لست أدري إن كنت الآن في البيت أم في المستشفى. خرجت مسرعا، لا أتذكر كيف نزلت كل تلك الدرجات، ما أتذكره هو أنني كنت أرغب في الذهاب بعيدا. كنت أركض بما أسعفتني به قدماي اللتان لم أشعر بهما كأنني كنت أنتعل الريح، لم أحس بمضي الوقت، فقط كنت أجري مسرعا كالذي فقد عقله.

من شدة التعب تهاويت على الأرض مغشيا علي. أفقت وجموع الناس من حولي مصوبون سهام فضولهم الفج واستغرابهم المقيت من أعينهم المتقدة، فجأة لمحت الطاهر سموك البهلول بينهم، تقاطعت نظراتنا، العين في العين، كنت خائر القوى بالكاد أعي ما حولي، اقترب مني ثم انحنى صوبي هامسا بكلام غير مفهوم. اعتدل في وقفته حدق مليا في تلك النفوس، ثم ما لبث وأن راح ينادي:

« يَا نَاسُ يَاؤُ مَا بُقَا وَالْوُ.. بُقَا غَيْرِ الْمَاءِ يَحْمَا.. الدَّيْنِيَا بِنْتِ كَلْب.. والناس عميان وُرَاهَا.. كَلَاؤُنَا الكَوَافَةَ والجُبُورَةَ.. وَلِينَا أَحْنَا أَوْلَادَ الْبَلَادِ بَيْنَاتُهُمْ ضَابِعِينَ.. وَهُمَّا يَحْكُمُوا بِأَحْكَامِهِمْ.. وجوه البق، دنما كامل مصوه.. ما يشبعوه، يوكلوا كي الحلالف، الجيعانين في كروشهم.. ما يَحْشَمُوش، وجوهم ضَحَاخُ ما يَعْرِقُوشُ، وما يَعْرِفُوشُ كار لَقْدَرُ.. بلا أصل.. لا دين ولا ملة.. فرنسا خرجناها بالقوة، وهم استعمرونا.. وجوه نَمَم..... تفوووه..الخ».

كنت مستلقيا على ظهري ورأسي مصوبا إلى الأعلى، السماء فوقني شاحبة، عتمتها أثقلت صدري وسحابها أصابني بالحنوط. كان الناس من حولي يستحيلون تدريجيا إلى كائنات خرافية مفرزة، ظلمت أهدق فيهم مستغربا من ملامحهم البشعة وملابسهم المتسخة والممزقة وأطرافهم العظيمة والمشوهة ووجوههم القذرة والمرعبة. كان الشر يتطاير من أشداقهم بينما كانوا يضحكون ويصرخون، وتثير حركاتهم ضجيجا وجلبة مهولين، وأجسادهم الرطبة واللزجة كانت تنفث سائلا قاتم اللون يصبغ الأماكن التي يتساقط عليها ببقع عظيمة، وبخار أشبه بالدخان يتصاعد من بثور ومسمات جلود أجسادهم المتهيجة والمبللة بالعرق، وكلما كانوا يغرزون أطرافهم في رؤوس تلك البثور بصورة غير محتملة، كانت تتطاير القشور وتنتشر رائحة كريهة وخنائقة. وكنت بين اليقظة والغياب عن الوعي أرى الطريق مزدحمة بهؤلاء الأوغاد، واصلت طريقي، لم أتوقف عن الارتطام بأكتافهم الهائلة وأرجلهم العملاقة التي تسد عليّ كل الفجوات والمنافذ. ضوء

صارخ يحجب عني الرؤية، فتحت عيني على آخرهما حتى كادتا أن تخرجا من محجريهما.

مرة أخرى لم أستطع رؤية أي شيء، البياض الطاغي صبغ كل شيء. أغمضت عيني، تلمست حاجبي وجفني بأصابع يدي اليمنى، مسحت عليهما ببطء بتمرير يدي اليسرى غير مصدق ما حل بي! بالكاد حركت أصابعي المرتجفة، بدا الأمر مرعبا. فتحت عيني مجددا، استحال البياض الكثيف إلى ظلمة خانقة، فركت عيني، لا جدوى!

حاولت أن أسترجع أنفاسي واستعيد طاقتي المهدورة، لم يكن الأمر هينا، فقد كنت أعمى أسير على غير هدى. في النهاية تغلبت على عجزتي وخوفي بعسر، وواصلت طريقي؛ لست أبالي بوعثاء الطريق ومشقتها وطول الأيام الرتيبة والمضجرة وتمططها، ما مضى كان قد مضى وانتهى، وما سيكون سيكون، لا مفر منه، تركت الماضي خلف ظهري ولم أرهق نفسي في التفكير في أشياء ستكون أو لا تكون في مستقبل قد ما يكون. كنت فقط أبحث عن طريقي، أتحمسها بخطواتي، إلى أن عثرت عليها، الآن أراها ببصري وبصيرتي، سأغمض عيني، وسأحلم، الآن أنا مرتاح ومطمئن. بدأت أتخفف تدريجيا، هبت رياح خفيفة، أحسست بنسماتها تداعبني وتلاعبني، حتى بدأت أرتفع رويدا رويدا، بعيدا عن تلك الكائنات الخرافية كقشة أو كريشة إلى أن تلاشيت في العدم.

كُتبت في عَنَابة، الجزائر العاصمة، بروكسل، وبيروت
خلال الفترة (2016-2018).

أنجز طبعه على مطابع

باتنة - chihab print -